السيرة النبوية
للأطفال

تأليف
صلاح الدين محمود السعيد

الناشر
دار البيان العربي



السيرة النبوية

للأطفال

اسم الكتاب : السيرة النبوية للأطفال

اسم المؤلف : صلاح الدين محمود السعيد

مقاس الكتاب : ١٧ x ٢٤

عدد الصفحات : ١٦٠ صفحة

عدد الأجزاء : جزء واحد

رقم الإيداع : ٢٢٦٠٩ / ٢٠٠٦ م



دار البيان العربي

الأزهر / درب الأتراك ت: ٥١١٨٠٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

(آل عمران: ١٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ . (النساء: ١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١).

أما بعـــد:

فإن خير الكلام كلام الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار.

وبعـــــد:

فإن مرحلة الطفولة هى أخصب وأطول وأهم فترة يمكن للمربى أن يغرس فيها من المبادئ القويمة والتوجيهات السليمة فى نفوس وسلوك أبنائه، فالفرص متاحة والإمكانيات متوفرة من فطرة سليمة وطفولة ساذجة وبراءة صافية وليونة ومرونة وقلب لم يلوث ونفس لم تدنس.

فإذا تمت الاستفادة الحسنة من تلك الفترة كان الرجاء فيما بعدها أقرب وعلى هذا كما قال العلماء: (فالصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل نقش ومائل إلى كل ما يُمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيِّم عليه والوالى له).

وإن تربية الطفل وتعليمه ليست من فضول القول والعمل وليست من الكماليات وإنما هى من الأساسيات والواجبات المتحتمات على الأبوين خاصة والمربين عامة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم: ٦).

قال على ﷺ فى تفسيرها: أدبوهم وعلموهم، راجع تفسير الآية، ابن كثير.

إذًا فالتعليم والتأديب والتربية معناها الجنة وإهمال ذلك معناه النار، فلا مجال إذًا للتفريط فى هذه المهمة، ومن أجل ذلك قمت بهذا العمل «السيرة النبوية للأطفال» ليتعلم أطفالنا من سيرة حبيبهم ﷺ، فهذه أحبائى سيرة خير البشر فتدبروا جيداً وخذوا منى الأسوة والقدوة من خلال تدبركم لقراءة هذا الكتاب الشيق.

وأسأل الله عز وجل أن ينبت أطفالنا نباتًا حسنًا وأن يجعلهم لنا قرة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

أبو أنس

صلاح الدين محمود السعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

النذر والذبيح

لقى عبد المطلب عنتًا شديداً من قريش عند حفر زمزم وأحس عبد المطلب قلة حيلته فى قومه لقلة أولاده فلم يكن معه من أولاد سوى الحارث مما جعلهم يعارضونه ويهددونه بقوتهم وكثرة عددهم.

كل هذا جعل عبد المطلب ينذر نذراً لئن ولد له عشرة أولاد بنين ثم كبروا وأصبحوا رجالاً يحمونه ويمنعون عنه الموانع فلا تفعل معه قريش مثلما فعلت فى حفر زمزم ونذر فى هذا النذر لئن ولد له عشرة رجال ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، فلما توافى فى بنيه عشرة وأصبحوا رجالاً قادرين على حماية أبيهم والدفاع عنه دعاهم عبد المطلب جميعًا إلى الوفاء بالنذر فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحًا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتونى، ففعلوا ثم أتوه فدخل بهم على صنم يسمى هبل وكان هبل على بئر فى جوف الكعبة وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها الهدايا التى تهدى للكعبة، وكانت عند هبل قداح سبعة كل قدح فيه كتاب، فمثلاً: قدح فيه كتاب العقل: إذا اختلفوا فى العقل[1] من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة فإن خرج العقل فعلى من خرج حمله، وقدح فيه «نعم» للأمر إذا أرادوه يضرب به فى القداح، وقداح فيه لا، إذا أرادوا أمراً ضرب به فى القدح فإن خرج ذلك القدح بـ «لا» لم يفعلوا ذلك الأمر.

وقدح فيه «منكم» وقدح فيه «ملصق» وقدح فيه «من غيركم» وقدح

---

(١) العقل: الدية.

فيه «المياه» إذا أرادوا أن يحضروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج القدح عملوا بما فيه.

وجاء على المطلب بأبنائه العشرة ليوفوا بالنذر وفى سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من الأبناء اسمه على قدح وأخذها عبد المطلب وذهب بها إلى صاحب القداح عند هبل فى جوف الكعبة وكانت قريش والعرب كما اشتدت بها الحيرة فى أمر لجأت إلى صاحب القداح كى يستفتى لها كبير الآلهة الأصنام عن طريق القداح وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر أبنائه وأحبهم لذلك إليه فلما ضرب صاحب القداح القداح التى عليها أسماء هؤلاء الأبناء العشرة ليختار هبل من بينهم من ينحره أبوه عبد المطلب خرج القداح على عبد الله فأخذ عبد المطلب الغتى وذهب به لينحره حيث كانت العرب تنحر عند زمزم عندئذ قامت قريش كلها من أنديتها تهيب بعبد المطلب أن لا يذبح ابنه وأن يلتمس من عدم ذبحه من هبل عذراً، وعندما ألحوا واشتد إلحاحهم تردد عبد المطلب فى ذبح ابنه عبد الله وسألهم ما عساه أن يفعل لترضى الآلهة؟ فوقف رجل يقال له المغيرة بن عبد الله المخزومى وقال: إن كان فداؤك بأموالنا فديناه، وتشاور القوم واستقر رأيهم على الذهاب إلى عرافة -بيثرب- فقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق به إلى الحجاز فإن به عرافة لها تابع فسلها ثم أنت الذى تقرأ أمرك فإن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك ولابنك فيه فرج قبلته.

فانطلقوا حتى وصلوا المدينة فوجدوها بخير فلما جاؤها سألوها وقص عليها عبد المطلب قصته وخبر ابنه عبد الله وما أرادوا به ونذره فيه فاستمهلتهم إلى الغد وقالت: ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله، فرجعوا من عندها فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها فقالت: كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل.

قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم تفرقوا وقربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح فإن خرجت على صاحبكم : فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ثم قدموا عبد الله وعشراً من الإبل وعبد المطلب قائم عند هبل يدعو الله عز وجل ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله .

فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل عشرين وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله وزادوا عشراً ثم عشراً فبلغت الإبل أربعين وخمسين وستين وسبعين وكلها تخرج القداح على عبد الله إلى أن ضربوا القدح على مائة من الإبل فخرجت القدح على الإبل فهللت قريش ومن حضر هذا الأمر العجيب وقالوا : قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب .

فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، وفى المرات الثلاث خرجت القداح على الإبل فاطمأن عبد المطلب إلى رضاء ربه ونحرت الإبل ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا حيوان .

ولعل قصة فداء عبد الله تدل على عادات العرب وعقائدهم ولكن حدث فى الإسلام قصة عن الفداء جاء فيها : أن امرأة من المسلمين نذرت إن فعلت كذا لتنحرن ابنها فذهبت إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب فلم يجبها بشىء ، فذهبت إلى عبد الله بن عباس عالم المسلمين فأفتاها أن تنحر مائة من الإبل كما كان الأمر فى فداء عبد الله بن عبد المطلب ، فلما عرف ذلك مروان والى المدينة وأميرها أنكر ذلك واعترض بشدة وقال : لا نذر فى معصية .

أى لا يجوز أن تنذر نذراً فيه عصيان لله عز وجل .

تحدثنا عن نسب رسول الله ﷺ وعرفنا أنه نسب شريف طاهر وتحدث

الرسول ﷺ عن نسبه وطهارة هذا النسب فقال: «لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبًا لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما» حديث شريف.

فعبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب.

وآمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

وأم آمنة هى برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب.

كل هذا النسب لعبد الله وآمنة يلتقى عند قصى بن كلاب إلى إسماعيل عليه السلام.

وإذا نظرنا إلى زهرة الجد الأكبر للسيدة آمنة أم محمد ﷺ نجده أنه الأخ الأكبر لقصى والد عبد مناف وقد أقام زهرة بمكة حياته كلها لم يفارقها ولم يرحل عنها وكان أولاده مع أولاد قصى فى كل ما يهم أمر قريش فكانوا يشاركونهم فيما يقومون به من عمل وأول حلف عقده بنو عبد مناف هو حلف المطيبين فكان بنو زهرة معهم على بنى عبد الدار.

وكان بنو زهرة وهم آباء آمنة ﵂ شركاء بنى عبد مناف فى نصيبهم عند تجزئة الكعبة لبنائها فقد تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة(١).

وكان عبد الله بن عبد المطلب والد النبى ﷺ فتى وسيمًا جميل الطلعة وكانت أوانس مكة ونساؤها معجبات لذلك به وزادهن به إعجابًا حديث الفداء والمائة من الإبل التى لم يرض هبل بما دونها فداء له لكن إرادة الله وقدرته كانا قد أعدا عبد الله ليحمل أكرم أبوة عرفها التاريخ وأعد آمنة بنت وهب لتكون أمّا لابن عبد الله.

---

(١) انظر تاريخ الطبرى.

فقد كان عبد المطلب قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أبرهة الأشرم الحبشى مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق وكان ابنه عبد الله فى الرابعة والعشرين من سنه فرأى أن يزوجه فاختار له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة سيد بنى زهرة فى هذا الوقت سيدهم شرفًا وأكبرهم سنًّا.

وخرج عبد المطلب حتى أتى منازل بنى زهرة ودخل وإياه عند وهب وخطب إليه ابنته[١] وقيل: إنه ذهب عمها أهيب وخطبها منه لأن أباها كان قد مات وكانت هى فى كفالة عمها وفى بيته[٢].

وعرفت آمنة بالخبر السعيد من أمها وهى تعرف شأنها شأن بنات مكة أن عبد الله بن عبد المطلب هو الفتى الذى افتداه أبوه بمائة بعير نحرت عند الكعبة لا يصد عنها إنسان ولا سبع.

ودخل عليها من يقول: إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك لابنه عبد الله، وظلت آمنة صامتة هادئة إلى أن أحطن بها سيدات آل زهرة اللاتى توافدن واحدة فى إثر أخرى مهنئات مباركات وقد سمعت آمنة أن نساء من قريش وقفن فى طريق عبد الله بين الحرم ودار وهب ابن عبد مناف يعرضن أنفسهن عليه عرضًا ليتزوجهن لما كان عليه من جمال وخلق.

وزفت آمنة إلى عبد الله واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها كان عبد الله يقيم أثناءها مع عروسه فى دار أبيها على عادة العرب حين يتم الزواج فى بيت العروس[٣].

ولما أشرق اليوم الرابع سبقها عبد الله إلى داره كى يهيئها لاستقبال عروسه على حين مضت هى تعد نفسها لوداع دار أبيها التى تربت فيه ولاستقبال بيت الزوجية.

---

(١) السيرة لابن هشام جـ١ (ص٥٦) ابن كثير/ دمشق.

(٢) هذه الرواية الخاصة بعمها أهيب وردت فى طبقات ابن سعد جـ١ ص٥٨.

(٣) السيرة لابن هشام.

وأقبلت آمنة تودع أهلها وأترابها وصواحباتها ثم جمعت نفسها وسارت فى رفقة من نساء بنى زهرة يودعنها إلى الدار الجديدة وتلقاها عبد الله على باب داره مرحبًا كى تشعر أن هذه الدار هى دارها التى لا تختلف كثيراً عن دار أبيها.

وكانت دار عبد الله واسعة مريحة تناسب عروسين قد بدآ حياتهما الزوجية.

وقد وصف بيت عبد الله فقيل: إنه درج حجرى يوصل إلى باب يفتح من الشمال ويدخل فيه إلى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر متراً فى عرض ستة أمتار وفى جداره الأيمن يدخل منه إلى قبة فى وسطها بميل إلى الحائط الغربى مقصورة من الخشب أعدت لتكون مخدع العروس[1] أو حجرة نومها».

وخرج عبد الله إلى استقبال ضيوفه ومهنئيه بالعرس بعد أن ترك آمنة مع رفيقاتها من سيدات آل زهرة وهاشم ومضى وقت طويل من الليل والمهنئون ساهرون عند عبد الله والمهنئات ماكثات عند آمنة يباركون هذا الزواج المبارك ويدعون لعبد الله وآمنة بالذرية الصالحة، وقد عرفوا أنهم أكرم أهل الحجاز حسبًا وأعرقهم نسبًا، وبقى عبد الله مع عروسه أيامًا لم تحدد بدقه ولكن فى الأغلب أنها لم تتجاوز العشرة أيام إذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة إلى غزة والشام فى عير قريش وهى ما تعرف برحلة الصيف، كما أن رحلة الشتاء تتجه إلى اليمن، كان فراق عبد الله لآمنة صعبًا ولكنه انتزع نفسه منها انتزاعًا من شدة تمسكها به وودعها ومضى إلى رحلته ومكث عبد الله فى رحلته هذه الأشهر التى يقتضيها السفر الطويل إلى غزة فى بلاد الشام والعودة منها ثم عرج على أخواله بالمدينة يستريح عندهم من وعثاء السفر ليقوم بعد ذلك فى قافلة إلى مكة.

---

(١) الرحلة الحجازية للأستاذ محمد لبيب البتانونى.

لكن عبد الله مرض عند أخواله فتركه رفاقه حتى إذا وصلوا إلى مكة أخبروا أباه عبد المطلب بمرضه ولم يلبث عبد المطلب حين سمع خبر مرض ابنه عبد الله أن أرسل ابنه الحارث ـ وهو أكبر بنيه ـ أرسله إلى المدينة ليعود بأخيه بعد شفائه، وعلم الحارث حين وصل المدينة أن عبد الله مات ودفن بها بعد شهر من مسير القافلة إلى مكة، فرجع أدراجه إلى مكة حاملاً خبر وفاة أخيه مما أثار فى قلب عبد المطلب حزنًا شديداً وفجع آمنة فامتلأت نفسها بالهم والشجن والحزن الشديد فقد فقدت زوجها الحبيب وقد كانت ترجو فى حياته هناءة وسعادة، وحرن عبد المطلب حزنًا شديداً لأنه كان حريصًا حين افتداه من آلهته فداء لم تسمع العرب من قبل بمثله افتداه بمائة بعير ذبحت فى الكعبة جميعًا.

ولم يترك عبد الله من بعده مالاً كثيرًا بل ترك خمسة من الإبل وقطيعًا من الغنم وجارية هى أم أيمن حاضنة النبى ﷺ فيما بعد.

أما آمنة فقد كانت بشارات الحمل قد ملأت عليها حياتها قبل أن تعلم بخبر وفاة زوجها فقد قيل لها فى الرؤيا حين حملت برسول الله ﷺ: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولى: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمداً.

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور أضاءت به قصور بصرى من أرض الشام(١).

---

(١) السيرة لابن هشام ص١٥٨ جـ١ دار ابن كثير تحقيق الإبيارى والسقا وعبد الحميد شلبى.

عـــام الفيـــــل

قبل أن نتحدث عن ميلاد الرسول ﷺ لا بد أن نتحدث عن عام الفيل وقصة أصحاب الفيل فى هذا العام لأنه العام الذى ولد فيه رسول الله ﷺ .

ولنبدأ أحداث عام الفيل من اليمن إذ كان يحكمها رجل يقال له أرياط وهو وال عليها من قبل ملك الحبشة وكل ملك فى الحبشة يسمونه النجاشى وقد أقام أرياط بأرض اليمن سنين فى سلطانه ذلك ثم نازعه فى أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشى كان مساعداً له وتفرق الأحباش فى اليمن منهم من انضم إلى أرياط ومنهم من انضم إلى أبرهة الحبشى وانحاز كل فريق إلى واحد منهما ثم ثار كل منهما ضد الآخر حتى واجه كل منهما صاحبه بجيش فلما أوشكوا على بدء القتال وتقارب الناس أرسل أرياط إلى أبرهة يقول له: إنك لا تصنع خيراً عندما تلقى جند الحبشة وجهًا لوجه تقاتل بعضها بعضًا حتى تفنى بعضها البعض فتعال وابرز إلىَّ وأبرز إليك فأينا أصاب الآخر وانتصر عليه انصرف إلى كل جند الحبشة فأرسل إلى أرياط موافقة الرأى وقال: أنصفت، فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحيمًا أى ممتلئ باللحم وكان نصرانيًا وخرج إليه أرياط وكان رجلاً جميلاً عظيمًا طويلا وفى يده حربته أما أبرهة فقد جعل خلفه غلامًا له يسمى عتوة لكى يحمى ظهره فرفع أرياط الحربة فضربه أبرهة يريد وسط رأسه فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته فبذلك سمى أبرهة الأشرم».

فهجم «عتوة» غلام أبرهة على أرياط من وراء أبرهة فقتله فانضم جند أرياط إلى جند أبرهة بعدما قتل قائدهم أرياط وأصبح أبرهة قائد جند الحبشة باليمن.

وكانت لمكة والبيت الحرام مكانة عظيمة فى نفوس الناس جميعًا مما

جعل بعض البلاد البعيدة تغار من إقبال الناس عليها فأقام الغساسنة فى الحيرة بيتًا يريدونه كالبيت الحرام فى مكة ليحج إليه الناس ويكون ذا مكانة كمكامة بيت الله الحرام.

وكذلك أبرهة فعل فقد بنى كنيسة سماها القليس قيل عنها إنها لم ير مثلها فى زمانها بشيء من الأرض وقد عنى أبرهة بزخرفة كنيسة القليس غاية العناية وجلب لها من فاخر الأساس ما خيل إليه معه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه.

ثم كتب إلى النجاشى مليكه فى الحبشة فقال له: إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حجاج العرب(١).

سمع العرب بكتاب أبرهة للنجاشى وبقصة بنائه الكنيسة ليجعل العرب يحجون إليها بدلاً من الكعبة بل وأهل مكة أنفسهم.

لم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم عن البلد الحرام وقد ظن أبرهة أن ما جلب من أثاث فاخر وزخرف لكنيسته القليس ظن أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم وأهل اليمن عن بيت الله الحرام المكى.

ولكن العرب لم يتجهوا إلا إلى البيت العتيق ورأى أهل اليمن أنفسهم والذين بنى أبرهة القليس فى عاصمتهم رآهم يتركون بيته وكنيسته التى بناها ولا يعتبرون حجهم مقبولاً إلا بمكة وبيتها الحرام، عندئذ تهيأ أبرهة للحرب وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ثم أمر الحبشة أن يتهيئوا للحرب فتهيئوا وتجهزوا وخرج فى جيش كبير تقدمه راكبًا على فيل عظيم.

وسمعت العرب بذلك فخافت العاقبة وعظم عليهم أن يقدم رجل حبشى

---

(١) تاريخ الطبرى سيرة ابن هشام.

على هدم بيت حجهم وهى الكعبة بيت الله الحرام ورأى العرب جهاد أبرهة وصده ومنعه عن هدم الكعبة بيت الله الحرام.

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب دعاهم جميعًا إلى الوقوف فى وجه أبرهة والدفاع عن بيت الله الحرام وصده عما يريد من هدم الكعبة وإخرابها فأجابه إلى ذلك من أجابه واعترض طريقه أبرهة الأشرم فهُزم ذو نفر وأصحابه وأخذ أسيراً لكثرة رجال أبرهة فلم يستطيع أن يثبت أمامه.

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له وهو هدم الكعبة المشرفة حتى وصل إلى خثعم وفيها قبيلتا «شهران، وناهس» اعترض رجال خثعم من القبيلتين بقيادة نقبل بن حبيب الخثعمى ومعهم رجال من قبائل العرب الأخرى فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً ولكن أبرهة أخلى سبيل نفيل وخرج معه «نفيل بن حبيب الخثعمى» معه يدله حتى إذا مر بالطائف - فخرج إليه أهلها وعلى رأسهم مسعود بن معتب - فقالوا له: أيها الملك نحن سامعون لك مطيعون - وليس بيتنا هذا الذى تريد وكان عندهم صنم اللات إنما أنت تقصد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه - فعفا عنهم وتجاوز عنهم فبعثوا معه دليلاً للطريق يسمى أبو رغال كى يدله على الطريق إلى مكة فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى نزل بموضع قرب مكة، وأرسل عدداً من جنوده يقودهم الأسود بن مقصود الحبشى فركبوا الخيل وهجموا على أموال أهله تهامة من إبل وماشية وغنم وساقوها إلى أبرهة ومن بين هذه الأموال التى استولوا عليها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها فهمت قريش وكنانة وهزيل ومن كان بذلك الحرم هموا جميعاً بقتاله ولكنهم لما عرفوا أنه على رأس جيش قوى جرار من جند الحبشة الأقوياء وأنه لا طاقة لهم به تركوا فكرة الحرب والقتال أما أبرهة فقد بعث رجلاً من رجاله يدعى حناطة الحميرى إلى مكة وقال له:

سل عن سيد أهل مكة وشريفها ثم قل له: إن الملك يقول لك: إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تتعرضوا لنا بالحرب فلا حاجة لى فى دمائكم فإن هو لم يرد حربى فأتنى به».

ذهب حناطة قاصداً مكة وسأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم فجاءه عبد المطلب فقال له حناطة ما أمره به أبرهة فأجابه عبد المطلب قائلاً: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه فهو بيته وحرمته وإن يخلٍّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال حناطة فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتى بك، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر وكان له صديقًا فعلم أنه أسير محبوس فدخل عليه وهو فى محبسه فاستشاره فى أمر أبرهة فقال دو نفر: ليس بيدى شىء أفعله وأنا أسير محبوس عنده ولكن سألكم أنيس سائس الفيل وخادمه فيكلم أبرهة.

وأنيس صديق لى لا يرد لى طلبًا وبعث ذون نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وأنفعه عنده بما استطعت.

كلم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب قافلة التجارة فى مكة وهو يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رءوس الجبال فأذن له يكلمك فى حاجته، أذن أبرهة لعبد المطلب وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جنبه ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فلما سأل الترجمان عبد المطلب قال: حاجتى أن يرد علىَّ الملك

مائتى بعير أصابها لى، فلما قال ذلك الترجمان قال أبرهة لترجمانه: قل له: كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى أتكلمنى فى مائتى بعير أخذتها منك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ولا تكلمنى فيه؟!.

قال له عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربّا سيمنعه ويحميه!.

قال أبرهة: لن يمنعه ويحميه منى.

قال عبد المطلب: هل هو أمامك أنت وذلك، ورد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أخذها منه وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأقرهم بالخروج من مكة والتحصن فى الجبال والشعاب الخفية بين الجبال تخوفًا عليهم من قوة جيش أبرهة، ثم قام عبد المطلب وأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه رجال من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده وظل عبد المطلب آخذاً بحلقة باب الكعبة يدعو رب الكعبة ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وبعد أن تركها انطلق هو ومن معه من قريش إلى شعب الجبال وتحصنوا بها ينتظرون ما سيفعله أبرهة بمكة إذا دخلها.

وأن لأبرهة أن يوجه جيشه ليتم ما اعتزم فيهدم البيت ويعود أدراجه إلى اليمن فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وجهزه وأعد جيشه وكان اسم الفيل محموداً وأبرهة مُصرٌّ على هدم الكعبة ثم الانصراف إلى اليمن فلما وجهوا الفيل إلى مكة جاء رجل «يقال له: نفيل بن حبيب» واقترب من الفيل حتى وقف إلى جنبه فأمسك بأذن الفيل وقال: ابرك أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام، ثم ترك أذنه فبرك الفيل وهرب نفيل إلى الجبل بعيداً، ولما برك الفيل ضربوه ليقوم فأبى وأدخلوا أسياخ الحديد فى بطنه فلم يستجب. وضربوه بآلة حديدية فى رأسه ولكن بلا فائدة ووجهوه راجعًا إلى

اليمن فقام يهرول سريعًا ووجهوه إلى الشام فهرول مسرعًا أيضًا وعندما وجهوه إلى مكة مرى أخرى برك مكانه ولم يبال بضربهم ونخسهم، فى هذه الأثناء أرسل الله تعالى عليهم طيرًا من جهة البحر لونها أسود وفى حجم الزرازيد نوع من الطيور الصغيرة مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك ولكنها لم تصبهم جميعًا فخرج البقية منهم هاربين على الطريق الذى منه جاءوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك وثم تفشى بينهم وباء الجدرى وبدأ يفتك بهم وكان تمكنًا ذريعًا لم يعهد من قبل أبدًا ولعل جراثيم الوباء قد جاءت مع الريح والطير من ناحية البحر وأصابت العدوى أبرهة نفسه فأخذه الروع والخوف وأمر من بقى من جنده بالعودة إلى اليمن وفر الذين كانوا يدلونه على الطريق ومات منهم من مات وكان ذلك نعمة مِنَ الله منَّ بها على أهل مكة جميعًا حيث قاتل عنهم ورد أبرهة وجنده خائبين منهزمين هالكين وكفى الله عبد المطلب وقومه مئونة القتال.

ميلاد الرسول ﷺ

تقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى وكما تضع كل أم وليدها.

وقد ولد رسول الله ﷺ بشعب بني هاشم بمكة صبيحة يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل (١).

وقيل: إن آمنة ﵂ قالت: لما ولدته خرج منى نور أضاءت له قصور الشام (٢).

وذكر أمن أحداثًا حدثت يوم ميلاد رسول الله ﷺ منها أنه: سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى وخمدت النار التى يعبدها المجوس والفرس وتحدث حسان بن ثابت أنه كان غلامًا قويًا طويلاً يعقل ما يسمع ويدركه قال حسان: سمعت يهوديًا يصرخ بأعلى صوته على حصن بالمدينة ويقول: يا معشر يهود - فجاءوا إليه - فقالوا له: ما لك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به (٣).

ولما ولدت آمنة محمداً وتم لها الوضع أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده الجميل فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة ودعا الله وشكر له واختار عبد المطلب لحفيده اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفًا فى العرب ورد الجد عبد المطلب الصبى إلى أمه وجعل ينتظر وإياها المراضع من بنى سعد لتدفع الأم بوليدها محمد إلى إحداهن على عادة أشراف العرب من أهل مكة، وفى سابع يوم لمولده أمر عبد المطلب بغنم فذبحت ودعا رجالاً

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) ابن سعد جـ١ ص٦٣.

(٣) رواية ابن هشام جـ١ ص١٥٩.

من قريش فحضروا وأكلوا وشربوا فلما علموا أنه اختار اسم محمد إلى حفيده سألوه لم سميته محمداً ولم تسمه باسم من أسماء آبائه وأجداده؟.

فقال: أردت أن يكون محموداً فى السماء لله وفى الأرض لخلقه وانتظرت آمنة مجىء المراضع من بنى سعد لتدفع به إلى إحداهن كعادة أشراف العرب من أهل مكة ولا تزال هذه العادة متبعة عند أشراف مكة فهم يبعثون أبناءهم فى الثامن من مولدهم ثم لا يعودون إلى الحضر (وهى مكة) حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة، ومن قبائل البادية التى لها فى المراضع شهرة قبيلة بنى سعد، وفى انتظار مجىء المراضع أعطت آمنة ابنها محمداً إلى ثويبة جارية عمه أبى لهب ولذلك ظل محمد ﷺ يحفظ لثويبة الحب والود حتى ماتت وجاءت مراضع بنى سعد كل واحدة منهن تريد الأطفال لإرضاعهم وكانت المرضعات تفضل أبناء الأغنياء حتى تحصل منهم على أجر كبير من المال ويرفضن اليتامى ولذلك لم تقبل واحدة من أولئك المراضع على محمد وذهبت كل مرضعة بمن اختارت من الأطفال الذين يدفع لهم عنهم أجراً وافراً ومالاً كثيراً، استرضع عبد المطلب من بين هؤلاء المرضعات مرضعة لابنه وهى حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية أو حليمة السعدية وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبى كبشة وهو من نفس قبيلة بنى سعد ولقد قصت حليمة قصتها مع محمد وروت الكثير من العجائب فقالت: «خرجت من بلدى مع زوجى الحارث وابن لى صغير أرضعه خرجت مع نسوة مرضعات من بنى سعد نلتمس الرضاء وذلك فى سنة شهباء لا خضرة فيها ولا ماء[١] ـ لم تبق لنا شيئًا ـ فخرجت على حمار قمراء يميل لونها للخضرة ومعنا ناقة كبيرة السن والله ما تعطى قطرة من اللبن وكنا ما ننام ليلنا كله لكثرة بكاء الصبى الذى هو معى من شدة جوعه وما فى ثديى ما يشبع جوعه وما فى ناقتنا ما

---

(١) النص فى سيرة ابن هشام/ بتصرف يسير منى للتبسيط.

يغذيه ولكنا كنا نرجو المطر والفرج فخرجت على حمارى ولقد طالت علىَّ المسافة حتى تأخر الركب بسبب انتظارى كلما تأخرت حتى قدمنا إلى مكة نلتمس الرضاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها الطفل محمد رسول الله ﷺ فكانت المرضعات جميعًا ترفض إرضاعه إذا قيل لهن أنه يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده! فما بقيت امرأة كانت معى إلا أخذت رضيعًا وأعرضت عن محمد فى أول الأمر كما أعرض عنه غيرى من المرضعات فلما أجمع القوم على العودة بالأطفال من مكة إلى بنى سعد قلت لزوجى: والله إنى لأكره أن أرجع مع صواحبى ولم آخذ رضيعًا والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم ولآخذنه.

فأجاب زوجها: عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبت إليه فأخذته وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره فلما أخذته رجعت به إلى ناقتى وحمارى فلما وضعته فى حجرى أقبل على ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب مع أخيه حتى روى ثم ناما وما كنا ننام من أخيه الرضيع قبل ذلك لجوعه وكثرة بكائه وقام زوجى إلى ناقتنا فإذا هى مملوءة الضرع باللبن فحلب منها وشرب وشربت معه حتى شبعنا فبتنا فى أحسن حال.

فلما أصبحنا قال زوجى: تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة فقلت: والله إنى لأرجو ذلك.

وتواصل حليمة قصتها فتقول: ثم خرجنا وركبت أنا حمارى وحملته عليها معى فوالله لسبقت بحمارى كل من فى الركب ولم تستطع دوابهم اللحاق بحمارى حتى إن صواحبى ليقلن لى: يا ابنة ذوئيب ويحك! انتظرينا أليست هذه حمارك التى كنت قد جئت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله! إنها لهى هى.

فيقلن: والله إن لها شأنًا.

ثم قالت حليمة: ثم قدمنا منازلنا فى بلاد بنى سعد وما أعلم أرضًا من

أرض الله أجدب منها فكانت غنمى تخرج للرعى فتعود شباعا لبنًا أى أنها أكلت حتى شبعت فامتلأت ضروعها باللبن فتحلب ونشرب أما غيرنا فلا يجد قطرة من لبن ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم أسرعوا حيث يسرح راعى حليمة السعدية فتروح أغنامهم وتأتى جائعة خالية من اللبن وتروح غنمى ثم تعود شباعًا لبنًا فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضيت سنتاه وفصلته وكان يشب شبابًا لا يشبه الأطفال فى سنه فلما بلغ عمره السنتين قدمنا به على أمه آمنة ونحن أحرص على بقائه معنا لما كنا نرى من بركته فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت ابنى عندى حتى يغلط فإنى أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم تزل بها حتى ردته معنا.

ورجعنا به وبعد مقدمنا بأشهر كان يلعب مع أخيه بين صغار الغنم خلف بيوتنا فأتانا أخوة خائفًا فقال لى ولزوجى:

ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه ـ يضربان بعضه ببعض ـ يحركانه.

فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدته قائمًا منتقعًا فالتزمته وأمسكت به وكذلك أبوه فقلنا ما لك يا بنى؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا صدرى فالتمسا فيه شيئًا لا أدرى ما هو؟

قالت حليمة: فرجعنا إلى مكاننا وقال لى أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فسلميه لأهله قبل أن يظهر ذلك به فاحتملناه وذهبنا به إلى أمه فقالت: ما الذى أقدمك به يا حليمة وقد كنت حريصة عليه وعلى وجوده عندك؟ فقالت حليمة: قلت: قد بلغ الله بابنى وقضيت الذى على وتخوفت عليه من الأحداث فجئت إليك به كما تحبين.

قالت آمنة: ليس هذا هو السبب، اصدقينى الخبر ما السبب فى إعادة الطفل لى سريعًا وقد كنت حريصة على بقائه؟.

وظلت بها حتى أخبرتها فقالت: أفتخوفت عليه من الشيطان.

قالت حليمة: نعم.

قالت آمنة: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل وإن لابنى لشأنًا أفلا أخبرك خبره؟ قالت حليمة: بلى.

قالت آمنة: رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف عليَّ ولا أيسر منه ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء دعيه عنك وانطلقى راشدة.

وفـــــاة آمنــــــة

ولما خشيت عليه حليمة بعد وقعة شق الصدر ردته إلى أمه فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين[١] .

ورأت آمنة بنت وهب وفاء لذكرى زوجها الراحل عبد الله بن عبد المطلب أن تزور قبره بيثرب؟ فخرجت من مكة بعد أن رأت أن محمداً قد بلغ ست سنوات وبه قوة على احتمال السفر فأعدت عدة السفر وحملته ومعه حاضنته أم أيمن التى أورثها له أبوه.

خرجت آمنة من مكة ثم يممت وجهها تلقاء المدينة بعد أن ألقت نظرة عابرة على أم القرى (مكة) ولم تكن تعلم بأنها الرحلة الأخيرة إلى الدار الآخرة، ومضت القافلة فى طريقها وانسابت بين النخيل فى الواحة الخضراء وتابعت القافلة المسير حتى وصلت المدينة فأزادته أخوال جده عبد المطلب وكان نزولها في دار النابغة من بنى النجار ومكثوا عندهم شهراً وزاروا قبر الحبيب عبد الله بن عبد المطلب هناك بيثرب.

ولما قضوا من المدينة كل حاجة رحلوا عائدين إلى مكة ولما كانوا على نحو ثلاثة وعشرين ميلاً من المدينة وقد بلغوا قرية الأبواء وهى قرية بين مكة والمدينة، والأبواء: واد من أودية الحجاز به آبار كثيرة ومزارع عامرة.

وفى هذا المكان مرضت آمنة بت وهب وذبلت وبدا عليها مرض الموت وطفرت الدموع من عينها وهى ترى محمداً ﷺ قد ضحى وحيداً وأخذ محمد ﷺ يحدق النظر فى وجه أمه التى أخذت تودع الدنيا.

وقد شهدت أم أيمن أم النبى ﷺ آمنة فى مرضها الذى ماتت فيها ومحمد غلام يقع عند رأسها فنظرت إلى وجهه ثم قالت: كل حى ميت وكل

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٨.

جديد بال وكل كثير يفنى وأنا ميتة وذكرى باق وقد تركت خيراً وولدت طهراً[١].

ثم فاضت روحها إلى بارئها وتلاشى الصوت الدافئ بين رمال الصحراء وبكاها محمد ﷺ وعادا على بعيريهما إلى مكة.

وقد ظلت ذكرى وفاة آمنة فى نفس محمد ﷺ فعندما هاجر ﷺ إلى المدينة ونظر إلى دار أخواله بنى النجار قال فى تأثر: «هنا نزلت بى أمى»[٢].

---

(١) انظر الحلية والمواهب اللدنية ١/ ١٦٩/ ١٧٠.

(٢) انظر شرح المواهب اللدنية ١/ ١٦٧/ ١٦٨.

كفالة جده عبد المطلب

كان لوفاة آمنة وقع شديد فى نفس عبد المطلب جد رسول الله ﷺ وكانت مشاعر الحنان فى قلبه ترفرف حول حفيده اليتيم محمد ﷺ تذكره بموت أبيه عبد الله وهو عائد من الشام فمرض فى المدينة ومات فكان عبد المطلب لا يترك محمداً وحيداً أبداً بل يفضله على أولاده وقد كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من أولاده إجلالاً واحتراماً له فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤذروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأناً ثم يجلس معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع(١).

وبعد بلوغ محمد ﷺ ثمانى سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفى جده عبد المطلب بمكة ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبى طالب شقيق أبيه.

وحزن محمد لموت جده حزنه لموت أمه حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نفسه إلى مثواه الأخير وحتى كان دائم الذكر من بعد ذلك له رغم ما لقى من رعاية فيما بعد حينما كفله عمه أبو طالب وقد حماه أبو طالب إلى ما بعد مبعثه رسولاً نبيّا.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٨.

كفالة أبى طالب ورحلة الشام

آلت كفالة محمد ﷺ ورعايته إلى عمه أبى طالب وإن لم يكن أبو طالب أكبر أعمامه سنّا فقد كان الحارث أكبرهم سنّا ولم يكن أبو طالب أكثرهم مالاً وكان العباس أكثرهم مالاً لكنه كان على ماله حريصًا وكان أبو طالب على فقره أنبلهم وأكثرهم فى قريش مكانة واحترامًا ولذلك فلا عجب أن عهد إليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده.

وقد أحب أبو طالب ابن أخيه كحب جده عبد المطلب له، أحبه حتى كان يقدمه على أبنائه وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس ما يزيده به تعلقًا.

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه وضمه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بفضل واحترام وتقدير وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته ويصادق ويخاصم من أجله وقد ظهرت علامات وإرهاصات على محمد ﷺ كان يستغربها أحيانًا أهل مكة فقد كان ينظر إلى الغمام بوجهه فينزل المطر، وقد ذكر مؤرخو السيرة ذلك فقال أحدهم(١): قدمت مكة وهم فى قحط فقالت قريش: يا أبا طالب! أقحط الوادى وأجدب العيال فهلم فاستسق فخرج أبو طالب ومعه غلام (محمد) كأنه الشمس تجلت عن سحابة وحوله أغلمة وأطفال صغار فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه الغلام وما فى السماء سحابة فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا وأغدق على مكانه بالمطر هنا وهنالك وانفجر الوادى بالماء وأغرق القادم والذاهب.

---

(١) ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى ص١٥، ١٦ بتصرف.

ولما بلغ الرسول ﷺ اثنتى عشرة سنة أو يزيد ارتحل به أبو طالب تاجراً إلى الشام وفكر أن يصطحب محمداً معه ولكنه عاد وتردد خوفًا عليه من وعثاء السفر واجتياز الصحراء لكن محمداً أبدى رغبة صادقة فى مصاحبة عمه مما جعل عمه يترك التردد وصحب محمد ﷺ القافلة حتى بلغ بصرى وكان فى هذه البلد راهب عرف بـ« بحيرا » واسمه « جرجيس » فلما نزل ركب قافلة محمد وعمه أبى طالب خرج إليهم الراهب « بحيرا » وأكرمهم بالضيافة وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله ﷺ بصفته عرف أنه سيكون نبيّا فقال وقد أمسك بيد النبى محمد ﷺ : هذا سيد العالمين هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال أبو طالب : وما علمك بذلك ؟ فقال بحيرا : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخر ساجداً ولا تسجد إلا لنبى وإنى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة إنا نجده فى كتبنا وسأل أبا طالب أن يرده ولا يقدم به إلى الشام خوفًا عليه من اليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة(١) .

لقد رأى فيه الراهب بحيرا أمارات النبوة على ما تعلم من كتب النصرانية ونصح بحيراً أهله ألا يبتعدوا به أكثر ويدخلوا الشام خوفًا عليه من اليهود أن يعرفوا منه هذه الأمارات فينالوه بالأذى الشديد .

وفى هذه الرحلة الجميلة وقعت عينا محمد ﷺ على فسحة الصحراء وتأملت السماء الصافية والنجوم اللامعة ومر محمد بمدين ووادى القرى وغيرها مما تحدثت عنها الأحاديث فى باديته الفسيحة الواسعة ومر على مدينة الطائف فرأى حدائقها الغناء وتأمل الجبال القاسية المقفرة التى تطل على مكة وفى بطنها البيت العتيق والكعبة المشرفة وفى الشام عرف محمد أخبار الروم والنصارى وسمع عن عداوتهم مع الفرس الذين كانوا يعبدون النار

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ .

كان ﷺ راجح العقل دقيق الملاحظة قوى الذاكرة ولذلك كان ينظر إلى كل ما حوله نظرة الفاحص المدقق المحقق ولربما كان يسأل عما وراء ذلك كله من عظمة.

وعندما وصل رسول الله ﷺ لسن الخامسة عشرة كانت حرب الفجار فلما عرف محمد ﷺ طرق القوافل فى الصحراء مع عمه أبى طالب وكما استمع إلى الشعراء والخطباء مع أهله وذويه فى الأسواق حول مكة أثناء الأشهر الحرم.

عرف محمد ﷺ كذلك حمل السلاح عندما وقف إلى جانب أعمامه فى حرب الفجار.

وحرب الفجار تلك كانت بعض ما يثور ويحدث بين قبائل العرب من الحروب.

قد سميت الفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم ففى هذه الأشهر تمتنع قبائل العرب عن القتال ويقيمون أسواق تجارتهم بمكان يسمى عكاظ (سوق عكاظ) وهو مكان بين الطائف وعلى مقربة من عرفات وذلك لتبادل التجارة وتبادل الشعر والتفاخر وبعد ذلك الحج عند أصنامهم بالكعبة وكانت سوق عكاظ أكثر أسواق العرب شهرة، وكانت حرب الفجار بين قبيلة قريش ومن معهم من حلفاء مثل قبيلة كنانة من جهة وبين قبيلة قيس عيلان وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية لمكانته فى قريش وشرفه وسنه وكان النصر فى أول النهار لقيس على كنانة وقريش وفى وسط النهار لكنانة وقريش على قيس عيلان وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ وكان يجهز النبل للرمى ويقدمها لأعمامه[1].

---

(١) ابن هشام جـ١ محاضرات فى تاريخ الأمم للشيخ محمد الخضرى.

حلف الفضول

وقد شعرت قريش بعد حرب الفجار بأن ما أصابها وما أصاب مكة جميعًا بعد موت هاشم وموت عبد المطلب من تفرق الكلمة وحرص كل فريق وكل قبيلة على أن يكون هو صاحب الأمر ورئيس القوم ولذلك فقد طمع العرب فى قريش بعدما كانت قوية يخشاها الناس فلا يستطيع إنسان أن يطمع فى قريش لقوتها عند ذلك دعا الزبير بن عبد المطلب لاجتماع لقريش فاجتمعوا فى ذى القعدة وهو من الأشهر الحرم دعيت قبائل من قريش هم: بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة.

فاجتمعوا جميعًا فى دار عبد الله بن جدعان التيمى لمكانته وسنه وشرفه فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت»[1] وقد أثنى رسول الله ﷺ على هذا الحلف وأعده قريبًا من تعاليم الإسلام لما فيه من دعوة إلى العدل والتماسك والتعاون، وهذا الحلف يحارب العصبية والجاهلية ويقال فى سبب هذا الحلف غير حرب الفجار: إن رجلاً ومعه بضاعة يبيعها فاشتراها منه العاص بن وائل السهمى ورفض أن يعطيه حقه واستعدى عليه الذين حالفوه من بنى عبد الدار وبنى مخزوم وجمعًا وبنى سهم وبنى عدى فلم يهتموا به ولم يكترثوا بأمره وبذلك يكونون قد ساعدوا عليه العاص بن وائل السهمى على ظلمه وأكل حقه وثمن بضاعته التى باعها له.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص١١٣.

فما كان من الرجل إلا أن صعد جبل أبى قبيس ونادى بالشعر يصف فيها الظلم الذى وقع عليه من قريش وقد علا صوته علوّا شديداً حتى سمعته مكة كلها.

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال للناس: ما لهذا متحرك؟ أى لا نترك الظالم يظلم الناس، ودعا إلى اجتماعهم فى حلف الفضول فتعاهدوا على العدل والإنصاف بين الناس ثم قام وفد منهم إلى العاص بن وائل السهمى فانتزعوا منه حق الرجل الزبيرى بعدما وقعوا الحلف ـ حلف الفضول.

رعى الغنم والتأمل

انصرف الرسول ﷺ حين تجاوز الخامسة عشرة من عمره إلى التفكير والتأمل ومما زاده انصرافًا إلى التفكير والتأمل أنه كان يرعى غنم أهله ويرعى غنم أهل مكة فكان يرعاها فى بنى سعد(١) وفى مكة لأهلها على قراريط(٢) وكان ﷺ يذكر رعيه للغنم مغتبطًا سعيداً وكان يقول: ما بعث الله نبيّا إلا راعى غنم، ويقول ﷺ: «بعث موسى وهو راعى غنم وبعث داود وهو راعى غنم وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد».

وراعى الغنم النقى القلب الصافى النفس يجد فى جو البيداء وفسحة جوها الطلق أثناء النهار وفى تأمل النجوم المتلألئة إذا جاء الليل يجد فيه مجالاً لتفكيره وتأمله فى خالق هذا الكون العظيم وقد صرف التأمل الهادئ والهائم ورسول الله ﷺ وسلم صرفه عن كل شهوات الإنسان ولذلك فقد كان ﷺ بعيداً عن لهو أقرانه الذين فى سنه حتى أطلق عليه الصادق الأمين.

وقد يحدث محمد ﷺ عن ذلك فذكر أنه: كان يرعى الغنم مع زميل له، فحدثته نفسه يومًا أن يلهو كما يلهو الشباب فأبدى رغبته إلى صاحبه هذا أنه يود أن يهبط مكة يلهو بها لهو الشباب فى جنح الليل وطلب منه من أجل ذلك أن يحرس غنمه التى يرعاها لكنه ما إن وصل إلى مشارف مكة حتى لفت انتباهه عرس وزواج يحتفل به فوقف عنده وما هى إلا لحظات قليلة حتى نام.

ونزل مكة ليلة أخرى لهذه الغاية فامتلأت آذانه بأصوات موسيقية فجلس يستمع لكنه نام حتى أصبح الصبح.

---

(١) ابن هشام جـ١ ص١٦٦.

(٢) ابن هشام جـ١ ص١٨٧، ١٨٨.

وكان دخله من رعى الغنم قليلاً لبساطة هذا العمل وقلة أجره وما كان محمد ﷺ يهتم بالمال أو يعنى به وقد ظل حياته كلها زاهداً فى المال وراغبًا عنه كان كل ما يريده هو ما يشبع جوعه فقط وقد قال فى حديثه الشريف: نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، وكيف لا يزهد فى عرض الدنيا وقد ذاق مرارة اليتم صغيراً فهذا الذى يذكر جده الذى رعاه وأمه وهو لا يزال طفلاً حديث السن لم يتجاوز العام السادس من عمره وقد كان ﷺ قانعًا راضيًا بما رزقه الله سبحانه عز وجل لم تخاطبه أطماع فى ثروة أو مال كثير.

مع خديجة فى تجارتها

كان محمد ﷺ آنذاك فى كفالة عمه أبى طالب وكان أبو طالب رجلاً فقيراً كثير العيال لذلك رأى أن يبحث لابن أخيه عن عمل يدر عليه مالاً يكفيه ورزقًا واسعًا يفوق ما يجيء من رعى الغنم.

فبلغه يومًا أن خديجة بنت خويلد تستأجر رجالاً من قريش فى تجارتها وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها يتاجرون به وتجعل لهم أجرًا عن ذلك ولقد زاد فى ثروة خديجة وكانت من بنى أسد أنها كانت قد تزوجت مرتين مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى وكانت تقوم على مالها بمعونة أبيها خويلد وبعض من تثق فيهم من الرجال، وقد حاول بعض رجال قريش خطبتها والزواج منها ولكنها ردتهم جميعًا لأنها كانت تعتقد أنهم ينظرون إلى مالها وعزمت على أن تشغل نفسها بتجارتها فقط وتنمية ثروتها ومالها.

وعلم أبو طالب أنها تجهز لخروج تجارتها إلى الشام فنادى ابن أخيه محمداً ﷺ وكان يومئذ فى الخامسة والعشرين من عمره، فقال له: يا بن أخى أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا وقد بلغنى أن خديجة استأجرت فلانًا ببكرين ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك أن أكلمها؟.

قال محمد ﷺ: مثلما تحب يا عماه، فخرج أبو طالب إليها فقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانًا ببكرين ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة بكار[1]، وكان جواب خديجة: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا فكيف وقد سألته لحبيب قريب؟.

---

(١) أجر كانت تحدده خديجة.

عاد أبو طالب لابن أخيه: وقد سمه كلامًا طيبًا من خديجة وترحيبًا بمحمد على أنه حبيب وقريب فلما لقى محمداً قال له: هذا رزق ساقه الله إليك[١].

واستعدت قافلة خديجة وتجهزت وخرج محمد مع ميسرة غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به وانطلقت القافلة فى طريقها الصحراوى إلى الشام مارة بوادى القرى ومدين وديار ثمود وبتلك البقاع التى مر بها محمد مع عمه أبى طالب وهو فى الثانية عشرة من عمره وأحيت هذه الرحلة فى نفس محمد ذكرياته فى الرحلة الأولى وفى رحلته هذه وعندما بلغ بصرى على حدود الشام التقى بنصارى الشام وتحدث إلى رهبانهم وأحبارهم وتحدث إلى راهب نسورى وسمع منه واستطاع محمد ﷺ أن يتاجر بأموال خديجة ويربح أوفر الأرباح حتى ذكر أنه ربح ربحًا وفيراً أكثر ما ربحه ميسرة غلام خديجة، فلما حان موعد الرحيل اشترى لخديجة من تجارة الشام ويضاعتها كل ما رغبت إليه أن يشتريه لها.

فلما اقتربت القافلة من مكة وهى فى طريق عودتها من الشام قال ميسرة غلام خديجة: يا محمد أسرع إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف ذلك لك، وانطلق محمد حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة وكانت خديجة تجلس فى مكان عال لها فرأته وهو على بعيره فنزلت على الفور حين دخل دارها واستقبلته واستمعت إليه يقص بعبارته الجميلة وكلماته الهادئة الواقعة خبر رحلته وربح تجارته وما جاء به من صناعة الشام وهى تنصت مسرورة فرحة مندهشة من نجاح رحلة محمد ﷺ بتجارتها، وأقبل ميسرة من بعد فروى لها ما روى من مآثر محمد وأخلاقه وشمائله العظيمة.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى وتاريخ الإسلام للذهبى.

روى لها ميسرة قصة الراهب (نسطور) وهذا الراهب غير بحيرا الذى قابل رسول الله ﷺ فى رحلته مع عمه أبى طالب فقد دعا نسطور ميسرة غلام خديجة وسأله قائلاً : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى[1] يقصد أن الجالس تحت هذه الشجرة سيكون نبيّا .

وروى ميسرة لخديجة أيضًا أنه إذا جاء وقت الظهيرة والحر واشتد الحر عليهم يرى ملكان يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره[2] .

وزاد حديث ميسرة عن محمد ﷺ فى نفس خديجة غبطة وحبّا جعلها تفكر فى الزواج من محمد ﷺ وهى التى ردت من قبل أعظم قريش شرفًا ونسبًا تود أن تتزوج من هذا الشاب الذى تأكدت من صدقه وأمانته ورجولته، ولكن خديجة كانت فى حياء وخجل من أن تفصح عما فى نفسها من رغبة فى الارتباط بمحمد ﷺ والزواج منه وفكرت كثيراً خديجة كى تجد لهذا الأمر حلاّ ترى هل وجدت الحل؟ .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص١٨٨ .
(٢) ابن هشام ويقول : فكان ميسرة فيما يزعمون إذا كانت الهاجرة واشتد الحر . . . إلخ .

زواجه ﷺ من خديجة

لم يدم خوف خديجة من الإفصاح عن الرغبة فى الزواج من محمد ﷺ فقد كانت خديجة ﵂ امرأة حاذقة قوية شريفة جلدة صابرة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير وهى يومئذ أوسط قريش نسبًا وأعظمهم شرفًا وأكثرهم مالاً وكل قومها كان حريصًا على زواجها لو قدر على ذلك قد طلبوها وعرضوا عليها الأموال (١).

أرسلت خديجة صاحبة لها تسمى نفيسة بنت منبه التى روت هذه القصة فقالت: فأرسلتنى دسيسًا إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من الشام.

فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟.

فقال: ما بيدى ما أتزوج به؟.

قالت نفيسة: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟

قال: فمن هى؟.

قالت نفيسة: خديجة بنت خويلد، قال: وكيف لى بذلك؟.

قالت نفيسة: علىَّ.

قال ﷺ: فأنا أفعل.

ذهبت نفيسة بنت منبه وأخبرت خديجة بما دار بينها وبين محمد من حديث فأرسلت خديجة إليه وقد حددت له موعداً يأت فيه وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر ودخل رسول الله ﷺ فى صحبة أعمامه ومنهم حمزة والعباس وجمع المجلس ابن عمها ورقة بن نوفل وابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ١ ص١٣١، ١٣٢ من حديث نفيسة بنت منبه.

وقام أبو طالب عم النبى ﷺ فخطب فى جميع الحاضرين لخطبة الزواج.

فقال: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا وجعلنا الحكام على الناس ثم إن ابن أخى هذا محمداً بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح وزاد عليه برّا وفضلاً وشرفًا وعقلاً ومجداً ونبلاً.

فإن كان فى المال قلة، فإن المال ظل زائل ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وأعطى لها من مالى اثنتى عشرة أوقية ذهبًا ونصف، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

ولما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ابن عمها ورقة بن نوفل فقال:

لا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا علىَّ معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار ثم سكت فقال أبو طالب: قد أحببت يتكلم عمها معك، فتكلم عمها عمر ابن أسد وقال: اشهدوا علىَّ يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمداً بن عبد الله خديجة بنت خويلد وشهد على ذلك أشراف قريش، وقد أقام رسول الله ﷺ وليمة للناس بمناسبة زواجه من خديجة وفرحت خديجة بهذا الزواج فرحًا شديداً وقالت للرسول ﷺ: أطعم الناس، وتزوج الرسول ﷺ خديجة وفرح أبو طالب فرحًا شديداً وقال: الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم، وتعد وليمة الرسول ﷺ فى عرسه أول وليمة أولمها رسول الله ﷺ[1].

وانتقل رسول الله ﷺ إلى بيت خديجة ليبدأ وإياها صفحة جديدة من صفحات الحياة صفحة الزوجية ويرزقه الله منها البنين والبنات.

وتعد خديجة أول امرأة تزوجها الرسول ﷺ وكل أولاده منها سوى

---

(١) انظر السيرة الحلبية جـ ١ص ٢٢٧.

إبراهيم أمه ماريا القبطية، ولدت خديجة له أولاً القاسم وكان الرسول ﷺ يكنى به فيناديه الناس: أبا القاسم.

ثم جاءته زينب ورقية وأم كلثوم وعبد الله، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر، ومات أولاده كلهم وهم صغار أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن إلا أنهن أدركتهن الوفاة فى حياته فماتت فى حياته زينب ورقية وأم كلثوم، غير فاطمة رضي الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به[1].

وكان النبى ﷺ: وسيم الطلعة ربعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد صخم الرأس ذا شقر رجل شديد سواده مبسوط الجبين فوق حاجبين منونين متصلين واسع العينين، مستو الأنف دقيقه كث اللحية طويل العنق جميله عريض الصدر غليظ الكفين والقدمين، يسير ملقيًا جسمه إلى الأمام مسرع الخطو ثابته على ملامحه سيماً التفكير والتأمل.

وكانت خديجة تحبه وتذعن له وتطيعه وقد أعفته من شئون تجارتها ومالها لتقوم هى بذلك وتدع له التفكير والتأمل وقد أغنى الله رسوله بزواجه من خديجة فهى صاحبة حسب ونسب وثروة ومال وكان أهل مكة ينظرون إليهما وقد تمنوا ما هما فيه من سعادة وإكبار، ولم يكن الرسول ﷺ منعزلاً عن أهل مكة فكان يشاركهم حياتهم فأصبح ذا مكانة وجاه عظيم بينهم ورغم ذلك فقد كان متواضعًا فكان يصغى إليهم إصغاء حسنًا وكان قليل الكلام كثير الإنصات ميالاً للجد فى القول وكان يشاركهم المفاكهة والمزاح ولكنه لا يقول إلا الحق فكان يضحك أحيانًا فإذا غضب لا يظهر عليه من أثر الغضب إلا العرق على جبينه لأنه كان يكظم غيظه ولا يريد أن يظهر غضبه لما كان عليه من سعة الصدر والسماحة والوفاء للناس، وكان برّا جوداً كريم

---

(١) ابن هشام جـ١ / ١٨٩، ١٩٠ فقه السيرة لمحمد الغزالى ص٥٩.

العشرة وكان ﷺ ثابت العزيمة قوى الإرادة شديد البأس لا يعرف التردد، وكل هذه الصفات مجتمعة كانت تؤثر تأثيراً عميقًا فى كل من يعرف محمداً ﷺ فمن رآه هابه ومن خالطه أحبه فكان يشغل ﷺ بما يشغل به أهل مكة جميعًا.

إعادة بناء الكعبة

كان الرسول ﷺ قد بلغ الخامسة والثلاثين من مولده ﷺ حينما أرادت قريش بناء الكعبة وذلك لأن الكعبة كانت حجارة مرصوصة فوق القامة ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل ولم يكن لها سقف فسرق نفر من اللصوص كنزها الذى كان فى جوفها وكانت مع ذلك قد تعرضت باعتبارها أثرًا قديمًا لما مر عليها من زمن أضعف بنيانها وصدعت جدرانها وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل هائل انحدر إلى البيت الحرام فأوشكت الكعبة منه على الانهيار فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها واتفقوا على أن لا يدخلوا فى بنائها إلا طيبًا من حلال.

وكانت قريش تخاف هدم الكعبة وتهاب هذا الأمر العظيم[١].

وكانت قريش تخشى إن هى شيدت بنيانها ورفعت بابها وسقفتها أن يصيبها من رب الكعبة المقدسة شر وأذى فقد كانت تحيط بها فى مختلف عهود الجاهلية أساطير تخيف الناس من الإقدام على تغيير شيء من أمرها وتجعلهم يعتبرون ذلك بدعًا فلما طغى عليها السيل لم يكن أمام قريش بد من الإقدام على بنائها رغم ما هم فيه من خوف وحذر وصادف التفكير فى بناء الكعبة أن رمى البحر فى ذلك الوقت بسفينة قادمة من مصر مملوكة لتاجر رومى اسمه باقوم فحطمها وكان باقوم هذا بناء يعرف النجارة فلما سمعت قريش بأمره خرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريس إلى جدة فاشتروا السفينة من الرومى وكلموه فى الحضور معهم إلى مكة ليعاونهم فى بناء الكعبة ووافق الرجل وكان بمكة قبطى يعرف مهنة نجارة الخشب وتسويته

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ - وفقه السيرة للإمام محمد الغزالى وصحيح البخارى باب فضل مكة وبنيانها ١ / ٢١٥.

فوافقهم على أن يعمل لهم ويعاونه باقوم وقسمت قريس جوانب الكعبة إلى أربعة لكل قبيلة جانب تقوم بهدمه وبنائه.

وفى البداية ترددوا قبل هدمها مخافة أن يصيبهم أذى فلما رأى الوليد بن المغيرة ترددهم أقدم وهو خائف أيضًا فدعا آلهته وهدم بعض الجانب من الركن اليمانى وأمسى القوم ينتظرون ما الله فاعل بالوليد فلما أصبح فى اليوم التالى ولم يصبه شيء أقدموا يهدمون وينقلون الحجارة ومحمد ﷺ ينقل معهم وحتى انتهى الهدم إلى حجارة خضر ضربوا عليها المعول فارتد عنها فاتخذوها أساسًا للبناء عليها فلما ارتفع إلى قامة الرجل وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدس فى مكانه من الجانب الشرقى اختلفت قريش فيمن يمتاز بوضع الحجر الأسود فى مكانه استمر النزاع أربع اليال أو خمسًا واشتد حتى كاد أن يتحول إلى حرب شديدة فى أرض الحرم فتحالف بنو عبد الدار وبنو عدى أن يمنعوا أية قبيلة هذا الشرف العظيم وهو وضع الحجر الأسود مكانه وأقسموا على ذلك فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما اختلفوا فيه أول داخل عليهم من باب المسجد أو من باب الصفا فرضوا بذلك وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضيناه هذا محمد فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر طلب رداء أو ثوبًا فوضع الحجر فوق الثوب وطلب من رؤساء القبائل المتخاصمين والمتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه فى مكانه وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر والتنازع وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانية عشر ذراعًا ورفعوا بابها عن الأرض ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا وجعلوا فى داخلها ست دعائهم فى صفين وبنوا فى ركنها الشامى من داخلها سلمًا يصعد به إلى سطحها.

ورفعوا بابها من الأرض حتى لا يدخلها إلا من أرادوا دخوله ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة.

صارت الكعبة بعد انتهاء بنائها ذات شكل مربع تقريبًا يبلغ ارتفاعه خمسة عشر مترًا وطول ضلعه الذى فى الحجر الأسود والمقابل له كل منهما عشرة أمتار بابها على ارتفاع مترين على الأرض ويحيط بها من الخارج سور صغير بارتفاع خمسة وعشرين سنتيمترًا وبعرض ٣٠ سنتيمترًا وهى من أصل البيت لكن قريشًا تركتها(١) ولعل إسراع قريش الرضا بحكم محمد ﷺ أول دخوله من باب الصفا ثم تصرفه ﷺ حينما أخذ الحجر ووضعه على الثوب وأخذه من الثوب بعد أن حمله رؤساء القبائل إلى حيث مكانه ثم حمله ﷺ للحجر ووضعه فى مكانه من جدار الكعبة كل هذا دليل على مكانته ﷺ السامية فى نفوس أهل مكة وتقدير قريش له لما عرفوا عنه من أخلاق حميدة وآراء سديدة وهمة عالية سامية النفس مخلصة فى عملها.

---

(١) انظر ابن هشام وفقه السيرة لمحمد الغزالى ص٢٦٢، ٢٦٣ وصحيح البخارى باب فضل مكة وبنيانها، وأورد هذا كله تقريبًا الشيخ محمد الخضرى بك فى كتابه محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية جـ١ ص٦٤، ٦٥.

البعث والنبوة

مضت السنون ومحمد يشارك أهل مكة فى حياتهم وكانت خديجة خير النساء فهى التى قال عنها رسول الله وقد خط فى الأرض أربعة خطوط وقال لأصحابه (أتدرون ما هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ : أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد وفاطمة ابنة محمد ﷺ ومريم ابنة عمران وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون)(١).

وقد أنجبت خديجة من البنات زينبت ورقية وأم كلثوم وفاطمة أما الأبناء القاسم وعبد الله فقد ماتا فى الجاهلية - أما البنات فقد عنى محمد بتزويجهن من أكفاء لهن زوج زينب كبراهن من أبى العاص بن الربيع بن عبد شمس وكانت أمه هالة بنت خويلد أختًا لخديجة وكان فتى معروفًا فى قومه لاستقامته ونجاح تجارته وكان زواجًا مباركًا سترى قصته فى حينها حين يجىء الإسلام وتهاجر زينب إلى المدينة، وزوج رقية وأم كلثوم من عتبة وعتيبة ابنى عمه أبى لهب ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الإسلام إذ أمر أبو لهب ابنيه بتطليقهما لما ظهر الإسلام فتزوجهما عثمان واحدة بعد الأخرى، أما فاطمة فكانت طفلة صغيرة ما تزال صغيرة على الزواج فلم تتزوج من على إلا بعد الإسلام.

كان محمد فى هذه السنين يعيش حياة طمأنينة وتفكر وتأمل فقد ترك نفسه المطمئنة على سجيتها.

وكان بالقرب من مكة غار يسمى غار حراء كان محمد يذهب إليه طوال

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١٦، ٣٢٢) وفى فضائل الصحابة ١٣٣٩ وصححه الحاكم ووافقه الذهبى وصححه الحافظ ابن حجر فى الفتح: ٧/ ١٢٣ وقال الهيثمى فى المجمع: رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى - ورجالهم رجال الصحيح.

شهر رمضان من كل سنة يقيم به مكتفيًا بالقليل من الطعام والشراب بعيداً عن ضجة الناس والحياة يتأمل فيه هذا الكون الفسيح وعظمة الخالق سبحانه وتعالى وكان كلما استدار العام وجاء شهر رمضان ذهب إلى غار حراء وعاد إلى تفكيره، وبعد سنوات صار يرى فى نومه الرؤيا الصادقة التى تهديه إلى الحق وتبصره إلى أن خالق هذا الكون إله واحد عظيم فى خلقه سبحانه جل شأنه.

ولما تقاربت سنه ﷺ الأربعين وكانت تأملاته قد أخذت مكانًا عظيمًا فى نفسه وأحس أن هناك خلافًا واختلافًا شديداً بين ما يفكر فيه وما يعبد قومه من أصنام لا تنفع ولا تضر وقد حبب إليه الخلاء فكان يأخذ الطعام والماء ويذهب إلى غار حراء فى جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكانه وهو غار لطيف طوله أربعة أمتار وعرضه متران إلا قليلاً فيقيم فيه شهراً كان يطعم من جاءه من المساكين ويقضى وقته فى العبادة والتفكير فيما حوله لكنه ﷺ ليس لديه طريق واضح ولا منهج محدد وقد قضى محمد ﷺ فى هذه العزلة ثلاث سنوات قبل نزول الوحى وتكليفه بالرسالة العظيمة.

ولما تكامل عمره أربعين سنة بدأت آثار النبوة تلوح له ومن تلك الآثار الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح حتى مضت على ذلك ستة أشهر فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ أكرمه الله بالنبوة وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن(١).

وقد تحدثت السيدة عائشة عن قصة نزول الوحى على رسول الله ﷺ فقالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو

(١) فتح البارى ١ / ٢٧ وذكر أن مدة الرؤيا ستة أشهر فابتداء النبوة بالرؤيا وقع فى شهر مولده ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة وابتداء وحى اليقظة فى رمضان.

بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع أهله[1] ويتزود[2] لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، قال ﷺ: فأخذنى فغطنى[3] حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ: فقلت: ما أنا بقارئ فأخذنى فضمنى الثالثة ثم أرسلنى[4] فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١ - ٥).

فرجع بها رسول الله ﷺ خائفًا يرجف قلبه وقبل أن يرجع انصرف عنه الملك وتلفت يمنة وميسرة فلم ير شيئًا ومكث برهة أصابته فيها رعدة الخوف وتولاه أشد القلق وانطلق هائمًا فى شعاب الجبال يسأل نفسه عن هذا المذكر بالله وحده وبأنه الذى خلق الإنسان وبأنه الأكرم الذى علم الإنسان بالقلم ما لم يعلم، وتوسط الجبل وهو فى هذه الحال من نزع وخشية ومساءلة لنفسه فسمع صوتًا يناديه فأخذه الروع ورفع رأسه إلى السماء فإذا الملك فى صورة رجل هو المنادى وزاد به الفزع فوقف من الرعب مكانه وجعل يبعد وجهه علمًا يرى فإذا هو يراه فى آفاق السماء جميعًا ويتقدم ويتأخر فلا تنصرف صورة الملك الجميل من أمامه وأقام على ذلك زمنًا.

كانت خديجة قد بعثت أثناءه من يبحث عنه فى الغار فلا يجده فلما انصرفت صورة الملك رجع محمد خائفًا يرجف وقلبه يضطرب خوفًا وهلعًا ودخل على خديجة وهو يقول: زملونى زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وهو ينظر إليها نظرة المستنجد قال: يا خديجة ما لى! وأخبرها الخبر فحدثها بما رأى وقال: لقد خشيت على نفسى.

---

(١) يرجع إلى أهله. (٢) يتزود: يأخذ الطعام والشراب.
(٣) أى: ضمنى. (٤) أى: تركنى.

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وكان ورقة امرءاً تنصر فى الجاهلية وكان شيخًا كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة: يا بن العم! اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا بن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزله الله على موسى يا ليتنى فيها جذعًا ليتنى أكون حيّا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ أومخرجى هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى(١).

وذكر أن رسول الله ﷺ خرج من غار حراء بعدما فوجئ بالوحى ثم رجع وأتم جواره وبعد ذلك رجع إلى مكة.

فتور الوحى:

انقطع الوحى أيامًا وبقى رسول الله ﷺ فى أيام فتور الوحى وتأخره كئيبًا محزونًا تعتريه الحيرة والدهشة.

وقد فتر الوحى فترة حتى حزن النبى ﷺ خرج منه مراراً يعدو كى يتردى أو يلقى نفسه من فوق الجبال فكلما وصل ذروة جبل لكى يلقى نفسه فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه ويتبدد حزنه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك فإن أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك(٢).

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٢، ٣ وقد أخرجه البخارى مع اختلاف يسير فى اللفظ فى كتابى التفسير وتعبير الرؤيا - وجزء من نص الطبرى ٢ / ٢٠٧ بتصرف يسير.

(٢) انظر صحيح البخارى، كتاب التعبير، باب: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة.

وفيما هو نائم ﷺ فإذا به يهتز ويثقل تنفسه ويتبلل جبينه بالعرق فيقوم ليستمع إلى الملك يوحى إليه ويدعوه مرة أخرى فى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر: ١ - ٧) ورأته على هذه الحال خديجة فازدادت إشفاقًا وتقدمت إليه فى حنو ورقة وضراعة ترجوه أن يعود إلى فراشه وأن ينام ليستريح فكان جوابه - أو كما قال - انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعهم إلى الله وإلى عبادته فمن ذا أدعو؟ ومن ذا يستجيب لى؟

فبذلت خديجة ﵂ تهون عليه وتثبته وأعلنت إسلامها له وإيمانها بنبوته فقد جربت عليه خديجة طول حياته الأمانة والصدق وحب الخير والرحمة لقد عاشت معه أيام خلوته وتأمله وها هى تعيش الوحى معه.

وقد طلبت إليه خديجة أنه إذا جاءه الملك جبريل أن يخبرها فلما رآه أجلسته على فخذها اليسرى ثم على فخذها اليمنى ثم فى حجرها وهو ما يزال يراه فحسرت وألقت خمارها فإذا هو لا يراه فلم يبق عند خديجة شك فى أنه ملك وليس بشيطان.

وقد كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ على مراتب وطرق مختلفة.

أولها: عن طريق الرؤيا الصادقة وكانت مبدأ وحى النبى ﷺ.

وثانيهما: ما كان يلقيه الملك جبريل فى قلبه من غير أن يراه كما قال النبى ﷺ: إن روح القدس (جبريل) نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته.

الثالثة: أن النبى ﷺ كان يتمثل له الملك جبريل رجلاً فيكلمه ويخاطبه حتى يعى عنه ما يقول له وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

الرابعـة: أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس وكان أشد أنواع الوحى على رسول الله ﷺ فيلتبس به الملك حتى إن جبينه لينفض عرقًا أو راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان ﷺ راكبها ولقد جاء الوحى مدة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فتغلب عليه حتى كادت ترضها أو تكسرها.

الخامسة: أنه يرى الملك جبريل عليه السلام فى صورته التى خلق عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه وهذا وقع له مرتين كما جاء فى سورة النجم.

والمـرة الأولى فى الآيات ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

(النجم: ٥ - ٩)

فقد علم محمداً ﷺ ملك شديد القوى ذو منظر حسن وهو جبريل عليه السلام الذى ظهر واستوى على صوته الحقيقية للرسول ﷺ فى الأفق الأعلى وهو أفق الشمس عند مطلعها.

ثم دنا جبريل واقترب من النبى ﷺ فزاد فى القرب فكان دنوه - وقربه - مقدار قوسين أو أقرب من ذلك[1].

والمرة الثانية فى الآيات ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ (النجم: ١٣ - ١٥).

قال سبحانه: أتكذبون محمداً ﷺ فتجادلونه على ما يراه ويشاهده من آيات ربه، ولقد رأى محمد ﷺ جبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى، وهى شجرة نبق فى السماء السابعة ينتهى إليها ما يعرج من الأرض.

السـادسـة: ما أوحاه الله إليه وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

---

(١) التفسير الميسر - مجمع الملك فهد - بإشراف عبد الله عبد المحسن التركى ونخب من العلماء - سورة النجم وتفسير القرآن سورة النجم الآيات.

الســابعــة: كلام الله له منه إليه بلا وساطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام وقد ثبت هذا فى ليلة الإسراء.

نعـود إلى الوحى، فـقـد خـرج رسـول الله ﷺ بعـد ذلك يومًـا للطواف بالكعبة فلقيه ورقة ابن نوفل فلما قص عليه محمد أمره قال: «والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه» وقبل ورقة بن نوفل رأس رسول الله ﷺ وقد شعر النبى ﷺ بصدق ورقة فى قوله وسنجد كلمات ورقة حقيقة فيما بعد فسوف يكذبه الكفار ويؤذونه ويخرجونه من مكة كل هذا سنراه ونصرفه فى أحداث هذه السيرة العظيمة.

وفكر الرسول ﷺ فى كيفية دعوة قريش إلى الإيمان به وهو يعلم عنادهم وحرصهم على الأصنام والكفر والباطل.

نــزول ســـورة الضــــحى:

وفكر محمد ﷺ فى أمر قريش وأيقن تمامًا أنهم سيكونون أحرص الناس على الباطل وأنهم سيقاتلون من أجل أصنامهم وباطلهم ويقتلون رغم أنهم أقرباؤه وعشيرته ويعرفون أمانته وصدقه.

وفكر محمد ﷺ أنهم فى ضلال وأن ما يدعوهم إليه عبادة الله وحده والتفكر فى خلقه لهم وكيف خلقهم وخلق آباءهم من قبل ليعبدوه مخلصين وهو محمد ﷺ يريد أن يدعوهم ليتقربوا إلى الله بالعمل الصالح وإيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل وليتركوا عبادة الأصنام التى لا تستطيع أن تغفر لهم عصيانهم وقسوتهم.

وهل يترك هؤلاء الكفار أصحاب القلوب القاسية المتحجرة ما كان يعبد آباؤهم أفيتركون دين آبائهم؟

ولربما تساءل الرسول ﷺ إذا هم لم يؤمنوا به فماذا عسى أن يفعل.

وانتظر رسول الله ﷺ هداية الوحى إياه فى أمره وفيما يفكر فيه لكى ينير له الطريق فى هذه الأثناء تأخر عليه الوحى وفتر وأصبح جبريل لا ينزل عليه ونظر حوله فوجد كل شىء صامتًا لا يتكلم وأصبح كأنه وحيدًا بين الناس وبدأ يعود إلى مخاوفة قبل نزول الوحى.

وأحست خديجة فى نفس زوجها من خوف وقلق وفيما هو كذلك يجىء جبريل بالوحى بعد طول انتظار ونزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى) ذهبت مخاوف محمد ﷺ واستبدلت بسكينة فى النفس وفرحة وغبطة للقلب وزال روعه ﷺ وارتسمت على شفتيه ابتسامة راضية فحمد الله وسجد لله شكرًا أن ربه لم يتركه أبدًا فربه يذكره بجانب ذلك أنه كان معه منذ البداية فكان يتيمًا فآواه فى كفالة جده عبد المطلب وعمه أبى طالب وأنه وجده فقيرًا فأغناه بأمانته ويسر له العمل فى تجارة خديجة لتصبح حبيبته وزوجته وأم بنيه وبناته ووجده ضالاً فهداه للإسلام فليدع إلى الله ويدع دعوة الحق.

الصلاة وإسلام على بن أبى طالب:

كان من الحكمة أن تظل الدعوة سرية حتى لا تخرج قريش وهى فى قوة والإسلام ما زال طفلاً يحبو خطواته الأولى.

وكان من الطبيعى أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على أقرب الناس له وألصقهم به وهم آل بيته.

فأسلمت خديجة وعلم الله نبيه الصلاة فصلى وصلت خديجة معه وكان

يقيم معهما غير بناتهما على بن أبى طالب الذى كان صبيًا صغيرًا فى هذا الوقت كانت قريش قد أصابها أزمة شديدة وفقر وسوء حال، وكان أبو طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه».

وكفل العباس جعفر بن أبى طالب وكفل محمد عليًا فلم يزل معه حى نزل عليه الوحى وبعثه الله وفيما محمد وخديجة يصليان يومًا دخل عليهما على بن أبى طالب فجأة فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسر مما أوحاه الله يومئذ من القرآن فوقف على مدهشًا حتى أتما صلاتهما ثم سأل لمن تسجدان؟ فأجابه النبى ﷺ -أو كما قال: -إنما نسجد لله الذى بعثنى نبيًا وأمرنى أن أدعو الناس إليه.

ودعا محمد ﷺ ابن عمه إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى دينه الذى بعث نبيه به وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعزى وتلا محمد ﷺ ما تيسر من القرآن فأعجب على بالقرآن العظيم وفى الصباح أعلن على أنه لن يشاور أباه للدخول فى دين محمد وقال: لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أبا طالب فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله وكذلك كان على أول صبى أسلم ومن آل بيت النبى ﷺ زيد بن حارثة مولى النبى وخادمه، وكان حكيم بن حزام بن خويلد ابن شقيق خديجة ومعه زيد بن حارثة اشتراه من الشام فدخلت عليه عمته خديجة وهى يومئذ عند رسول الله ﷺ فقال لها: اختارى يا عمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك فاختارت زيدًا فأخذته فرآه رسول الله ﷺ عندها فطلبه منها فوهبته له فأعتقه وتبناه وذلك قبل أن يوحى إليه.

السابقون إلى الإسلام:

وكان أبو بكر الصديق صديقًا حميمًا للنبى ﷺ يستريح إليه ويعرف فيه النزاهة والأمانة والصدق لذلك كان هو أول من دعاه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان وأول من أفضى إليه بما رأى وبما أوحى إليه ولم يتردد أبو بكر الصديق فى إجابة محمد إلى دعوته وفى الإيمان بها وأذاع أبو بكر رضي الله عنه بين أصحابه إيمانه بالله وبرسوله وكان أبو بكر رجلاً وسيمًا مألوفًا لقومه محببًا سهلاً ذا خلق ومعروفًا وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ويحبونه لعلمه وتجارته وحسن مجالسته فجعل يدعو من يثق به من قومه فمن يزوره ويجلس إليه فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموى والزبير بن العوام الأسدى وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص الزهريان وطلحة بن عبيد الله التيمى فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام.

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشى ثم تلاهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح[1] وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبى الأرقم وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله وعبيدة بن الحارث عبد المطلب وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب وخباب ابن الأرت وعبد الله بن مسعود وغيرهم وأولئك هم السابقون الأولون وجميعهم من بطون قريش وعددهم أكثر من أربعين نفراً ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالاً وأعداداً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به.

أسلم هولاء جميعًا فى السر وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيًا لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية وكان الوحى قد تتابع

---

(١) انظر تسميته بهذا القب فى صحيح البخارى مناقب أبى عبيدة بن الجراح ١ / ٥٣٠.

وحمى بعد نزول أوائل سورة المدثر وكانت الآيات وقطع السور التى تنزل فى هذا الزمان آيات قصيرة تصف الجنة والنار وتدعو الناس إلى الإيمان .

فرض الصلاة:

أما عن الصلاة فقد فرض الله فى أول الإسلام الصلاة ركعتين بالصباح وركعتين بالعشى لقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ .
(غافر : ٥٥)

وكان الرسول ﷺ قبل الإسراء يصلى قطعًا وكذلك أصحابه فقيل: كان الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وأن رسول الله ﷺ فى أول ما أوحى إليه أتاه جبريل فعلمه الوضوء فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه وكان ذلك من أول الفريضة(١) .

وكان النبى ﷺ وأصحابه إذا حضرت الصلاة ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم وقد رأى أبو طالب النبى ﷺ وعليًّا يصليان مرة فكلمهما فى ذلك؛ ولما عرف حقيقة الأمر وجليته أمرهما بالثبات(٢) .

أخبار محمد تبلغ قريشًا:

آمن بمحمد ﷺ كل ضعيف وكل بائس وكل محروم وانتشر أمر محمد بمكة ودخل الناس فى الإسلام إرسالاً رجالاً ونساء وتحدث الناس عن النبى ﷺ وعن دعوته وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتمامًا ولعلها ظنت أو حسبت النبى ﷺ أحد أولئك الديانين الذين يتكلمون فى الدين إلا أن قريشًا خافت من ذيوع خبر محمد وامتداد أثره وأخذت ترقب على الأيام مصيرة دعوته(٣) وظن أهل مكة أن حديث محمد ﷺ لن يزيد على حديث

---

(١) مختصر سيرة الرسول ـ عبد الله النجدى ص٨٨ .
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٧ .
(٣) فقه السيرة للشيخ الغزالى ص٧٦ بتصرف .

الرهبان والحكماء أمثال ورقة بن نوفل وغيره مثل أمية بن الصلت وعمرو بن نفيل الذين تدينوا بأديان أخرى قبل الإسلام وقالت قريش: إن الناس عائدون لا محالة إلى دين آبائهم وأجدادهم وأن هبل واللات والعزى وأسافا ونائلة أصنامهم التى كان يذبح عندها ستكون فى النهاية هى صاحبة الغلبة ناسين أن الإيمان الصادق لا تمنعه قوة ولا تحول بينه وبين صاحبه أى قوة كانت وأن الحق هو المنتصر دائماً.

الجهر بالدعوة:

ومرت ثلاث سنين من بدء الوحى والبعث كانت الدعوة فيها سرية وبعد ذلك أمر الله رسوله أن يجهر بالدعوة وأن يظهر ما خفى من أمره وأن يصدع بما جاء منه.

كانت هذه الفترة - السنوات الثلاث - كافية لتكوين جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها ومكانتها العظيمة ثم نزل الوحى يدعو الرسول ﷺ أن يعلن دعوته على قومه وأن يجابه باطلهم ويهاجم أصنامهم التى لا تنفع ولا تضر فكان أول ما نزل فى سبيل إعلان دعوة النبى والجهر بها نزول قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤ - ٢١٦).

الصادق لا تمنعه قوة، ولا تحول بينه وبين صاحبه أى قوة كانت، وأن الحق هو المنتصر دائماً.

دعا محمد عشيرته وأهله إلى طعام فى بيته، وحاول أن يحدثهم داعياً إياهم إلى الله، فقطع عمه أبو لهب حديثه ودعا القوم إلى الانصراف ولكن النبى ﷺ لم ييأس فدعاهم مرة أخرى فلما طعموا قال لهم: ما أعلم إنساناً فى

العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟.

فأعرضوا عنه وهموا بتركه ـ لكن عليًا نهض وهو ما يزال صبيًا صغيرًا وقال: أنا يا رسول الله عونك أنا حرب على من حاربت فابتسم بنو هاشم وضحك بعضهم وجعل نظرهم ينتقل من أبي طالب إلى ابنه علي ثم انصرفوا مستهزئين ولم يشعر الرسول ﷺ بالقنوط واليأس من هذا الرد من أهله وعشيرته من بني هاشم بن عبد مناف لكنه انطلق إلى عشيرته الأقربين من أهل مكة.

تذكر محمد ﷺ كلمة عمه أبي طالب عندما جاء إلى بيته مع أهله وعشيرته والتي قال فيها أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك، بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب ـ وكان جالسًا مع أخيه أبي طالب: هذا والله السوأة خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ـ يريد بذلك أن يمنع محمدًا ﷺ من المضي في رسالته.

ولكن أبا طالب رد قائلاً: والله لنمنعه ما بقينا، وبذلك تأكد النبي ﷺ من أن عمه أبا طالب سيحميه ويدافع عنه طالما هو باق على وجه الدنيا.

محمد على جبل الصفا:

صعد محمد ﷺ جبل الصفا يومًا ونادى: يا صباحاه يا معشر قريش يا بني فهر!... يا بني عدي!... وجعل ينادي كل بطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما يريد محمد؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال ﷺ: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد

أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا فقال: إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد يا بنى عبد المطلب يا بنى مناف يا بنى زهرة يا بنى تميم يا بنى مخزوم يا بنى أسد إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله - أو كما قال - فنهض أبو لهب وكان رجلاً بدينًا سريع الغضب فصاح: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا.

نظر محمد إلى عمه أبى لهب[1] ثم ما لبث أن جاء الوحى بقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد: ١ - ٣).

وفى حجة الرسول هذه بلاغ لقريش ولأهله وعشيرته الأقربين فدعاهم إلى أن ينقذوا أنفسهم من النار وبين أنه لا يملك لهم من الله شيئًا[2].

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٧٠٢، ٧٤٣ وصحيح مسلم ١/ ١١٤.

(٢) انظر صحيح مسلم ١/ ١١٤ وصحيح البخارى ١/ ٣٨٥، ٢/ ٧٠٢ ومشكاة المصابيح ٢/ ٤٠٦.

الرسول ﷺ وأصحابه فى مواجهة قريش

خرج الرسول ﷺ وأصحابه للصلاة فى شعاب مكة فكان ﷺ إذا أراد الصلاة خرج بهم إلى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم هذه من قومهم.

وبينما كان سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بعظم بعير فجرحه فكان أول دم أسيل فى سبيل الإسلام [1].

بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام والتزم به كما أمره الله ولم ترد عليه قريش حتى ذكر آلهتهم وعاب أصنامهم فلما فعل ذلك غضبوا أشد الغضب وأجمعوا على عداوته، أما أبو طالب فقد عطف على ابن أخيه ورق له وحماه منهم ومضى رسول الله ﷺ فى دعوته واثقًا فى نصر الله عز وجل فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يتراجع عما هو فيه ولا يكف عن الحديث عن آلهتهم بالإنكار والكفر وظل يعيب آلهتهم ورأوا أن عمه أبا طالب قد عطف عليه لما رأوا ذلك كله فكروا فى لقاء أبى طالب، ليتحدثوا معه فى أمر ابن أخيه محمد ﷺ.

---

(١) السيرة لابن هشام جـ١ ص٢٦٣.

وفد قريش لأبى طالب

مشى رجال من أشراف قريش منهم أبو سفيان بن حرب وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والعاص ابن هشام وأبو جهل واسمه أبو الحكم بن هشام فلما وصلوا إلى أبى طالب تحدثوا إليه وقالوا:

« يا أبا طالب إن لك سنّا وشرفًا ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين »[١].

وكان فى حديث هؤلاء تحذير شديد اللهجة لأبى طالب كى يمنع ابن أخيه عنهم ويقنعه كى يترك دينه ورسالته ويفضل عليها أصنامهم وهى الحجارة التى تقف صامتة فى جوف الكعبة، وأصبح أبو طالب حزينًا حائرًا فقد عز عليه فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسًا بتسليم ابن أخيه محمد لهم وخذلانه أمامهم وفى هذه الحالة لم يجد أبو طالب أمامه سوى التحدث مع محمد ﷺ فبعث أبو طالب لابن أخيه محمد ﷺ فقال: له يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ـ وهو الكلام الذى قالوه لأبى طالب حينما جاءوا إليه ـ ثم أضاف أبو طالب محدثًا ابن أخيه: فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، فظن الرسول ﷺ أن عمه قد غير رأيه وأنه سيخذله ويسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته فقال رسول الله ﷺ: « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ».

ثم بكى رسول الله ﷺ وقام منصرفًا من أمام عمه فلما مضى ناداه أبو

(١) السيرة لابن هشام جـ١ ص٢٦٦.

طالب فقال: أقبل يا بن أخى، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبدًا[١].

وبهذا أكد أبو طالب وقوفه إلى جوار ابن أخيه محمد ﷺ وأنه لن يسلمه أبدًا ولن يتركه لقريش، بل سيسانده ويدافع عنه ولن يعارض دعوته.

عرفت قريش أن أبا طالب سيساند ابن أخيه محمدًا ﷺ ولن يخذله وأنه مفارقهم فى عداوة ابن أخيه ومحاربتهم، وعندما عرفوا ذلك فكروا فى أمر آخر: فقد أخذوا فتى من فتيانهم الأشداء وهو عمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له:

يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أشد وأقوى فتى فى قريش وأجمله فخذه لك واتخذه ولدًا فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك.

وغضب أبو طالب وقال لهم: أتعطوننى ابنكم أطعمه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا!

فلما عارضوه فى هذا الأمر قال لهم: فاصنعوا ما بدا لكم.

ثم تحدث أبو طالب إلى بنى هاشم وبنى المطلب بما دار بينه وبين ابن أخيه وبموقفه وطلب إليهم أن يحموا محمدًا من قريش فاستجابوا له جميعًا إلا أبا لهب فإنه صارحهم بالعداوة وانضم إلى أعدائهم من قريش وهم لا ريب قد منعوه متأثرين بتعصبهم للبيت الهاشمى ولم يخرج عن إجماعهم على حماية محمد ﷺ إلا أبو لهب وهو عمه لكن الكفر أعمى بصيرته وبدا عدوا شديد العداوة لمحمد ﷺ.

---

(١) السيرة لابن هشام.

الوليد بن المغيرة والقرآن:

فى هذه الأثناء اجتمع الوليد بن المغيرة مع جماعة من قريش وكان أكبرهم سنًا وشرفًا وقد اقترب موسم مجىء الحجيج إلى مكة فقال الوليد لهم: يا معشر قريش إنه قد جاء هذا الموسم وإن وفودًا وقبائل من بلاد العرب ستجىء إليكم وقد سمعوا بأمر محمد فتكلموا عنه أمام العرب بقول واحد متفق عليه ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا.

فقالوا: قل لنا رأيًا نقوله فى محمد.

فقال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع منكم.

قالوا: نقول: كاهن محمد كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما يقول محمد كلام الكهان الخفى الذى لا يسمع.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال الوليد: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بوسوسة المجانين وأحوالهم [1].

قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم، ولا يفعل ما يفعله السحرة.

فلما يئسوا قالوا: فما تقول أنت يا أبا عبد شمس؟ قال الوليد: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لجذع نخلة وفرعه ثمار هذه النخلة، وإن أقرب القول فى محمد لأن تقولوا عنه إنه: ساحر جاء يقول هو سحر - يقصد القرآن - يفرق بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عن الوليد بعد أن اتفقوا معه أن يقولوا عن النبى ﷺ إنه ساحر.

انتشر رجال قريش بين الطرقات لكى يقابلوا القادمين للموسم فكان لا

---

(١) السيرة بتصرف يسير فى النص.

يمر بهم أحد إلا حذروه من محمد وذكروا لهم قول إنه ساحر وادعوا عليه بالكذب .

عندئذ أنزل الله سبحانه عز وجل فى الوليد بن المغيرة قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدوداً ﴿١٢﴾ وبَنِينَ شُهُوداً ﴿١٣﴾ ومَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ (المدثر : ١١ - ١٦) .

وظل هؤلاء الناس من قريش يقولون عن رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس وهم لا يدرون أنهم ينشرون ذكر رسول الله ﷺ بين العرب كلهم .

زادت عداوة قريش للرسول ﷺ فكذبوه وآذوه ووصفوه بالساحر والكاهن والمجنون ورسول الله مستمر فى دعوته ماض فيها لا يخشاهم مجاهر بدعوته يقول ما يكرهونه عن أصنامهم فيعيب دينهم ويدعوهم إلى ترك الأصنام والأوثان .

وفى يوم من الأيام اجتمعوا فى حجر إسماعيل بالكعبة فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : لقد صبرنا كثيراً على هذا الرجل وما صبرنا على رجل مثلما صبرنا عليه لقد سب آلهتنا وسفه أحلامنا لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم على هذه الحال طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم ركن الحجر ثم مر بهم طائفًا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ثم مر بهم الثالثة غمزوه بمثلها فوقف ثم قال : « أتسمعون يا معشر قريش أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح »(١) والذبح دليل على الهلاك إذا لم يؤمنوا بما جاء به ﷺ ، وقوله ﷺ هذا يدل على قوته وثقته بنفسه فى مواجهتهم فكانت كلماته ﷺ لها وقع الصاعقة على رءوسهم حتى ما منهم رجل إلا كأن على رأسه طير واقع من

(١) السيرة لابن هشام.

الخوف والرعب حتى إن أكثرهم توصية بإيذائه وحماسًا من عداوته وقف يهدئ رسول الله ويقول له: انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً! فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم حتى إذا رد عليكم بالتهديد والوعيد تركتموه.

وبينما هم فى كلامهم هذا وحوارهم طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا وثبة رجل واحدا وأحاطوا به يقولون: أنت الذى تقول كذا وكذا ـ لما كان يقول ﷺ من عيب فى آلهتهم ودينهم وكفرهم ـ.

فيرد الرسول ﷺ بشجاعة: نعم أنا الذى أقول ذلك، فأمسك رجل منهم بثياب رسول الله ﷺ يريد إيذاءه فاندفع أبو بكر يمنع الإيذاء عن رسول الله ﷺ وهو يبكى ويقول: أتقتلون رجلاً يقول ربى الله!.

فانصرفوا عن رسول الله ﷺ بعد أن دخل بينهم صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

إســــلام حمزة:

وجاء دور أبى جهل من إيذاء رسول الله ﷺ فقد مر أبو جهل برسول ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ﷺ ولم يرد شتمه وأذاه.

كل هذا سمعته خادمة لرجل يقال له عبد الله بن جدعان فى مسكن لها قريب من المكان الذى كان فيه الرسول ﷺ حين سبه أبو جهل وآذاه وشتمه.

وبعد أن فعل أبو جهل فعلته اصنرف عن الرسول ﷺ وجلس فى ناد لقريش عند الكعبة يتسامر مع رجال من قريش.

ولم يمض وقت طويل حتى جاء حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وقد توشح قوسه متقلداً إياه راجعًا من رحلة صيد فى الصحراء وكان يحب

الصيد ويخرج له وكان إذا فعل ذلك يمر على كل نوادى قريش فيقف ويتحدث ويسلم على رجالها وكان حمزة ﷺ أعز فتى فى قريش وأشد فتيانها قوة وشجاعة فلما مر بخادمة عبد الله بن جدعان ـ وكان رسول الله قد رجع إلى بيته.

فقالت لحمزة: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد منذ قليل من الحكم بن هشام (أبو جهل) وجده ههنا جالسًا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ اشتد غيظ حمزة ﷺ وأراد الله به الخير والكرامة كى يكون هذا الموقف سببًا فى إسلامه.

فخرج على الفور يبحث عن أبى جهل فى كل مكان وقد أعد له حسابًا عسيرًا كى يؤدبه ويمنعه من التطاول على ابن أخيه محمد ﷺ فلما دخل الكعبة رآه جالسًا مع القوم من قريش فأقبل نحوه والشرر يتطاير من عينيه حتى وقف على رأسه فرفع القوس فضربه بها فأصابه فى رأسه إصابة كبيرة وشج رأسه ثم قال لعدو الله أبى جهل: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟!.

فرد ذلك علىَّ إن كنت فارسًا، فرد ضربتى هذه التى ضربتك إياها؟!! فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل عليه فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا(١) ودخل حمزة فى الإسلام وانتظم فى دعوة محمد ﷺ وقد تحدث حمزة عن إسلامه فقال: لما غضبت على أبى جهل وقلت: أنا على دين محمد ﷺ أدركنى الندم على فراق دين آبائى وقومى وبت من الشك فى أمر عظيم لا أرى النوم ثم أتيت الكعبة وتضرعت إلى الله تعالى أن يشرح صدرى للحق ويذهب عنى الشك والريب فما استتممت دعائى حتى زاح عنى الباطل وامتلأ قلبى إيمانًا فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمرى فدعا لى بأن يثبتنى الله.

---

(١) السيرة لابن هشام جـ١ ص٢٩٢.

عتبة بن ربيعة والرسول ﷺ

احتارت قريش في أمر محمد ﷺ، فبينما هم جلوس في ناديهم ورسول الله ﷺ جالس في الكعبة وحده.

وقف رجل من قريش هو عتبة بن ربيعة وقال لهم: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه ما يشاء ويسكت عنا بهذا الدين الذي جاء به، كان سبب ذلك إسلام حمزة وكثرة الناس الذين يدخلون في دين محمد ﷺ جماعات وأفواجاً.

وافقت قريش وقالوا لعتبة: قم فكلمه، فقام عتبة حتى جلس إلى جوار رسول الله ﷺ فقال له: يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشرف في القبيلة والعشيرة والمكانة في الحسب والنسب وإنك قد جئتنا بأمر عظيم فرقت به جماعتنا وعبت به من مات من آبائنا فاسمع مني سأعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها، فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليدز أسمع.

فقال عتبة: يا بن أخي إن كنت تريد بما جئت به من الدين مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك جنيّا تراه ولا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا منه أموالنا حتى نشفيك ونبرئك منه فلربما تملك الجني على الإنسان حتى يعالج منه! انتظر رسول الله ﷺ عتبة حتى فرغ من كلامه ثم قال له: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال عتبة: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: فاسمع مني، قال عتبة: نعم.

فقال ﷺ: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٢، ٦٣).

وظل ﷺ يقرأ وعتبة يسمع وينصت ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: هل سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك.

قال الوليد عتبة إلى أصحابه من قريش فقال بعضهم لبعض تحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به فلما جلس بينهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ ماذا حدث؟ فقال: إنى سمعت قولاً والله ما سمعت قط مثله والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعونى واتركوا هذا الرجل لدينه واعتزلوه فوالله ليكون لقوله الذى سمعته منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر وينتصر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به؟.

فقالوا فى سخرية: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم، لم يكتف كفار قريش بجلوس عتبة بن ربيعة مع الرسول ﷺ وإنما بعثوا إليه من يقول: إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا وهو يظن أن الله قد فتح عليهم وكان حريصًا على إسلامهم وجلس ﷺ معهم وقالوا: لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فإن كنت جئت بدعوتك ودينك هذا نطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت تطلب الشرف فينا جعلناك سيدنا وإن كنت تريد ملكًا جعلناك ملكًا علينا.

فقال ﷺ: ما جئت أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً وأنزل علىَّ القرآن وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فقالوا: إن كنت غير قابل ما عرضناه عليك فسل لنا ربك يفجر لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق ويجعل لك قصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك فأنت تذهب للأسواق وتبحث عن الطعام مثلنا حتى نعرف منزلتك من ربك ونعرف أنك رسولاً كما تقول!!.

فقال ﷺ : ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه عن هذا ولكن الله بعثنى إليكم بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن لم تقبلوا الدين الذى جئتكم به فإنى سأصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم(١).

وانصرف رسول الله ﷺ فلما ذهب رسول الله ﷺ قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وشتم آلهتنا وإنى أعاهدكم أن أنتظره غداً بحجر فإن سجد فى صلاته ضربت به رأسه فوافقونى على ذلك أو احمونى وليفعل بنو عبد مناف ما بدا لهم.

فقالوا: سنحميك منهم والله لا نسلمك لهم أبداً فافعل ما نريد، فلما أصبح أبو جهل جاء بحجر وجاء لرسول الله ﷺ وهو ساجد فلما سجد رسول الله رفع أبو جهل الحجر ثم أقبل نحو رسول الله ﷺ حتى إذا اقترب منه رجع مهزوماً خائفاً وقد تغير لون وجهه وقد يبست يداه بالحجر حتى وقع الحجر من يده فأسرع إليه رجال من قريش وقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: قمت إلى محمد ﷺ لأضربه بالحجر كما قلت لكم بالأمس فلما اقتربت منه تعرض لى بعير ضخم ما رأيت مثل رقبته ورأسه ولا رأيت مثل أنيابه فهجم على يريد أن يأكلنى، فلما قال لهم ذلك أبو جهل وقف رجل آخر من بينهم يسمى النضر بن الحارث كان فى سفر إلى بلاد الفرس (الحيرة) ـ وتعلم هناك أحاديث الملوك وقصص الأولين ـ قال لهم: إن محمداً ليس بساحر ولا كاهن ولا مجنون ولكن دعونى أتبعه بطريقتى وأفسد عليه أمره وكان النضر بن الحارث شيطاناً من شياطين قريش فمشى خلف رسول الله ﷺ فإذا جلس ﷺ مجلساً فذكر فيه الله وحذر الناس من معصية الله وأنهم إذا عصوه سيصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم من غضب الله ونقمته.

---

(١) السيرة باختصار يسير.

فإذا انتهى الرسول ﷺ من حديثه ومضى لشأنه جلس النضر مكانه وقال للناس: أحدثكم حديثًا أحسن من حديثه ثم يحدث عن ملوك فارس ورستم ثم يقول لهم: هل حديث محمد ﷺ أحسن حديثًا منى؟ وقد تحدث القرآن عن هذا الرجل اللعين النضر بن الحارث الذى أراد أن يفسد على الرسول ﷺ دعوته ويكذب كلامه نزل فيه القرآن يقول: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم: ١٥).

إيذاء النبى واضطهاد المسلمين وتعذيبهم:

فشلت قريش فى منع النبى من نشر دعوته فاجتمعت مرة أخرى وكونوا لجنة أعضاؤها خمسة وعشرون رجلاً من سادات وأشراف قريش رئيسها أبو لهب عم رسول الله ﷺ وبعد التشاور والتفكير قررت هذه اللجنة - الكافرة - إيذاء رسول الله ﷺ وتعذيب أتباعه وأصحابه الذين أسلموا، أما رسول الله ﷺ فإنه كان رجلاً شهمًا وقورًا ذا شخصية عظيمة لا يخشى من أحد إلا الله وكان لصدقه وأمانته تشريفًا وتعظيمًا عند أهل مكة فلم يجرؤ على إيذائه إلا السفهاء من الناس ومع ذلك فقد حماه عمه أبو طالب وأبو طالب من رجال مكة المعدودين المعروفين وبدأت قريش الاعتداءات ضد النبى ﷺ وعلى رأسهم أبو لهب فقد عادى الرسول ﷺ من أول يوم داعيًا فيه إلى الإسلام وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبه وعتيبة بنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل الإسلام فلما جاء الإسلام أمرهما بتطليق بنات النبى ﷺ وظل يأمرهما بعنف وشدة حتى طلقاهما[1].

وكان أبو لهب يضرب رسول الله بالحجر فى قدمه حتى ينزف الدم منهما[2].

---

(١) فى ظلال القرآن ٣٠/ ٢٨٢.

(٢) جامع الترمذى.

وكانت امرأة أبى لهب - أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان - لا تقل عن زوجها أبى لهب فى عداوة النبى ﷺ فقد كانت تحمل الشوك وتضعه فى طريق النبى ﷺ وعلى بابه ليلاً، وكانت تؤذى النبى ﷺ بلسانها وتفتدى عليه وتثير حربًا ضد النبى ﷺ فنزل فيها القرآن مع زوجها ووصفها بحمالة الحطب فقال عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (المسد: ١ - ٥) ولما سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها حجر فلما وقفت أمامهما أخذ الله ببصرها وأعماها عن رسول الله ﷺ فلم تر إلا أبا بكر فقالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد علمت أنه يهجونى ويتكلم عنى فى كتابه والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه ورأسه - ألم تعلم يا أبا بكر أننى شاعرة أقول الشعر وأرد على قول محمد ﷺ!! ثم قالت:

* مذممًا عصينا *
* وأمره أبينا *
* ودينه قلينا *

أى أنها ستعصى رسول الله ﷺ ولن تدخل فى دينه ولن تسمع لأمره ثم انصرفت، فقال أبو بكر ﷺ للنبى ﷺ: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال ﷺ: لقد أخذ الله ببصرها عنى[1]، وكان أبو لهب من جيران رسول الله الذين يؤذونه دومًا وكان من جيرانه أيضًا عقبة بن أبى معيط وغيرهم وغيرهم وكانوا يلقون عليه بقايا الغنم المذبوح وهو يصلى وكلما فعلوا ذلك خرج به رسول الله ووقف ينادى قومه ويقول: يا بنى عبد مناف أى جوار هذا!! ثم

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ١ / ٣٣٥، ٣٣٦.

يلقيه في الطريق(١) وذات يوم كان أبو جهل وأصحاب له يجلسون فقالوا: أي رجل منكم يلقى هذه البقايا من الغنم التي ذبحناها على ظهر محمد إذا سجد(٢) فخرج أشقى القوم - وهو عقبة بن أبي معيط - فجاء إلى النبي ﷺ حاملاً هذه القاذورات فلما سجد رسول الله ﷺ وضع على ظهره بين كتفيه ما حمل من قاذورات فجعلوا يضحكون ويتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا وتشفيًا في رسول الله، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة فطرحته عن ظهره فرفع رأسه ثم قال: اللهم عليك بقريش - ثلاث مرات - ثم سمى أسماء فقال: اللهم عليك بأبي جهل وعليك بعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط، فماتوا جميعًا وصرعوا يوم بدر(٣)، وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه (والهمز هو الشتم علنًا فكان هذا الرجل يشتمه علنًا) ويعيبه ويلمزه أمام الناس فنزل فيه القرآن يحذره ويعده بالويل والعذاب فيقول عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة: ١).

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متحابين متصافين وجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه فلما علم صديقه أبي أنبه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل وأمية بن خلف نفسه كان يؤذي النبي ﷺ(٤).

وممن كان يؤذي الرسول ﷺ رجل يسمى الأخنس بن شريق وقد وصفه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) النص يقول في البخاري: أيكم يجيء بسلا جذور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، وما كتبنا للتوضيح والتبسيط.

(٣) البخاري - كتاب الوضوء - باب إذا ألقى على المصلي قذر أو جيفة ١ / ٣٧ - عن ابن مسعود.

(٤) سيرة ابن هشام ١ / ٣٦١، ٣٦٢.

القرآن بقوله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ (القلم: ١٠ - ١٣).

وكان أبو جهل لعنه الله يجيء أحيانًا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن ثم يعود فلا يؤمن بدينه ولا يطيع ولا يتأدب ولا يخشى ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول ويصد عن طريق الله الصحيح ثم يذهب مختالاً بما يفعل فخوراً بما ارتكب من الشر وفيه نزل قول الله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ (القيامة: ٣١) وما بعدها من آيات(١) وكان يمنع النبى ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى فى الحرم ومرة مر أبو جهل بالنبى ﷺ وهو يصلى عند مقام إبراهيم فقال له: يا محمد ألم أنهك عن هذا وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره فقال أبو جهل: يا محمد بأى شيء تهددنى؟ فأنا أكثر منك ناديًا أى رجالاً فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ١٧، ١٨) الآيات، وقيل: إن النبى ﷺ أخذ بخناقه وهو يقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ (القيامة: ٣٤، ٣٥) فقال عدو الله: أتوعدنى يا محمد؟ - أى تهددنى - والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا وإنى لأعز من مشى بين جبليها(٢) ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار بل ازداد شقاوة وغباوة فيما بعد، وقد ذكر(٣) أن أبا جهل قال: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ليمسك برقبته أو يدوس عليها كما قال لهم فعاذ خائبًا فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً.

(١) فى ظلال القرآن ٢٩/ ٢١٢.

(٢) من حديث مسلم عن أبى هريرة.

(٣) من حديث مسلم عن أبى هريرة.

لم يتأثر رسول الله ﷺ باعتداءات قريش عليه ولا بإيذائهم له بل كان صاحب شخصية عظيمة فذة وله في نفوس الناس هيبة ووقار.

اضطهاد المسلمين:

واتجهت قريش إلى الذين أسلموا واتبعوا الرسول ﷺ وهم أصحابه فوثبت كل قبيلة على منها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش بصحراء مكة إذا اشتد الحر.

وكان اضطهاد قريش للضعفاء من المسلمين أشد وأقسى ومن لم يكن له قبيلة فقد أذاقوه ألوانًا من التعذيب والاضطهاد توجع القلب الرحيم.

فكان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومكانة وقبيلة أنبه بالكلام وأخزاه وأوعده بالخسارة الفادحة في ماله وجاهه أما إذا كان ضعيفًا لا يحميه أحد فيقوم بضربه والتنكيل به، وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يشعل النار من تحته.

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلام ابنها أجاعته وأخرجته من بيته وكان من أكثر الناس مالاً فضعف وذبل جسمه وجلده وكان بلال مولى وخادم أمية بن خلف فكان أميه يضع في عنقه حبلاً ثم يسلمه للصبيان يجرونه ويطوفون به جبال مكة حتى كان يظهر أثر الحبل في عنقه، وكان أمية بن خلف يشده شدًا ثم يضربه بالعصا وكان يجلسه في حر الشمس كما كان يكرهه على الجوع وأشد من ذلك كان يخرجه إذا حميت الظهيرة يطرحه في صحراء مكة ثم يأمر بالصخرة الضخمة فتوضع على صدره ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في هذا التعذيب: أحد أحد، حتى مر به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يومًا وهم يصنعون به كل ألوان التعذيب فاشتراه بسبع أواق من الفضة وأعتقه[1] وكان

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣١٧، ٣١٨.

عمار بن ياسر ﷺ مولي وخادمًا لبنى مخزوم فأسلم هو وأبوه وأمه سمية بنت خياط فكان المشركون ـ وعلى رأسهم أبو جهل ـ يخرجونهم إلى الجبل والصحراء فيعذبونهم بحرها ومر بهم النبى ﷺ وهم يعذبون فقال: صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة، فمات ياسر من العذاب وقتل أبو جهل سمية أم عمار طعنًا فى جسدها بحربة فماتت وهى أول شهيدة فى الإسلام وشددوا العذاب على ابنها عمار بالحر تارة وبوضع الصخر الحار على صدره مرة أخرى وظلوا يعذبونه وقالوا: لن نتركك حتى تسب محمداً أو تقول فى اللات والعزى خيرًا فوافقهم وجاء باكيًا معتذرًا إلى النبى ﷺ فأنزل الله ما يقبل عذر عمار فقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ (النحل: ١٠٦)(١).

وكان أبو فكيهة ـ واسمه أفلح ـ وكان مولي وخادمًا لبنى عبد الدار فكانوا يشدون برجله الحبل ثم يجرونه على الأرض.

وكان خباب بن الأرت مولي وخادمًا لأم أنمار الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعًا من التعذيب والتنكيل يأخذونه من شعر رأسه فيجذبونه جذبًا ويلوون عنقه تلوية عنيفة وأضجعوه مرات عديدة على فحم ملتهبة بالنار ثم وضعوا عليه حجرًا حتى لا يستطيع أن يقوم، وذكر أن أم أنمار أحمت سيخًا بالنار وضعته على جسمه فتألم كثيرًا ثم مرضت بعد ذلك فوصف لها الأطباء الكى بالسيخ المحمى أو الحديد المحمى بالنار فأمسك خباب السيخ بعد أن أحماه وكواها به لكى تشفى!!.

وكان من النساء من عذبن مثل زنيدة والنهدية وابنتها وأم عبيس وغيرهن ممن دخلت فى الإسلام وكان الكفار يذيقوهن ألوانًا من العذاب واشترى أبو بكر هؤلاء الجوارى فاعتقهن كما أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة(٢).

---

(١) انظر ابن هشام ١ / ٣١٧.
(٢) السيرة لابن هشام ص٣١٨.

كان المشركون يربطون بعض الصحابة فى مؤخرات الإبل والبقر ثم يلقونهم فى حر الصحراء ويلبسون بعضهم درعًا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة، انتشر الاضطهاد والتعذيب فى الحر والصحراء وكان من الحكمة تلقاء هذه الاضطهادات أن يحمى رسول الله ﷺ المسلمين فيمنع ويخفى إعلان إسلامهم قولاً وفعلاً وأن لا يجتمع بهم إلا سرّا لأنه إذا اجتمع بهم علنًا فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين ما يريد من تعليم المسلمين الكتاب والحكمة والصلاة وربما ينتهى الأمر إلى صدام بين المسلمين والكفار وقد حدث ذلك فعلاً فى السنة الرابعة من النبوة حينما اشتبك سعد بن أبى وقاص مع رجل من الكفار فأسال دمه وكان أول دم فى الإسلام.

وكان المسلمون فى ذلك الوقت ضعفاء ولو حدث تصادم لأدى إلى تدمير المسلمين وإبادتهم فكان من الحكمة الاختفاء والسرية فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهرانى المشركين لا يمنعه شيء ولكن كان يجتمع بالمسلمين سرّا نظرًا لصالحهم وصالح الإسلام وكانت دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى على الصفا بعيداً عن مكة وبمعزل عن أعين المشركين والكفار ومجالسهم فكان أن اتخذها رسول الله ﷺ مركزاً لدعوته ولاجتماعه بالمسلمين سرّا من السنة الخامسة من النبوة[١].

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٣ ومختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب ص٦٠.

الإســـــراء والمعـــــراج

الإسراء هو انتقال رسول الله ﷺ ليلاً من مكة إلى بيت المقدس ثم عودته إلى مكة فى الليلة نفسها.

أما المعراج فهو صعود الرسول ﷺ من بيت المقدس إلى السماوات العلا إلى سدرة المنتهى حيث أوحى الله إليه ما أوحى وفرض عليه الصلوات الخمس ثم هبوطه ﷺ إلى بيت المقدس فى ليلة الإسراء نفسها، وقد ذكر الإسراء فى القرآن الكريم فقال عز وجل: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ (الإسراء: ١).

أسرى برسول الله ﷺ بجسده من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبًا على البراق صحبه جبريل عليهما الصلاة والسلام فنزل هناك وصلى بالأنبياء إمامًا وربط البراق بحلقة باب المسجد.

وقد جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق، وهى الدابة التى كانت عليها الأنبياء قبله تضع حافرها فى منتهى طرفها وفى ليلة الإسراء كان الرسول ﷺ فى بيت ابنة عمه هند ابنة أبى طالب وهى أم هانئ فقالت هند: إن رسول الله ﷺ نام عندى تلك الليلة فى بيتى فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا فلما كان قبيل الفجر أيقظنا رسول الله فلما صلى الصبح صلينا الصبح معه قال: يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين.

فقالت أم هانئ: فقلت له: يا نبى الله لا تحدث به الناس فيكذبوك ويؤذوك.

قال: والله لأحدثهموه «أى سأحدثهم عن الإسراء والمعراج».

نعود إلى قصة الإسراء: ربط الرسول ﷺ البراق بحلقة باب المسجد الأقصى ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا فاستفتح له جبريل ففتح له فرأى هنالك آدم أبا البشر فسلم عليه فرحب به ورد ﷺ وأقر بنبوته وأراه الله أرواح الشهداء عن يمينه وأرواح الأشقياء عن يساره.

ثم عرج به إلى السماء الثانية فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم فلقيهما وسلم عليهما فردا عليه التحية ورحبا به وأقرا بنبوته ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى فيها يوسف فسلم عليه فرد عليه ورحب به وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته.....

فلما جاوزه بكى موسى فقيل له: ما يبكيك؟

قال: أبكى لأن غلامًا بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى.

ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم عليه السلام فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته ثم رفع عليه السلام إلى سدرة المنتهى ثم رفع له البيت المعمور ثم عرج به إلى رب العزة جل جلاله فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى فلما كان قريبًا جدًا من ربه أوحى إليه ما أوحى وفرض عليه خمسين صلاة فرجع حتى مر على موسى فقال له: بم أمرك؟ قال: بخمسين صلاة.

قال موسى عليه السلام: إن أمتك لا تطيق ذلك ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك فأشار: أن نعم، إن شئت،

فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى وهو فى مكانه[١] فوضع عنه عشرًا ثم أنزل حتى مر بموسى فأخبره فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل حتى جعلها خمسًا فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف فقال: قد استحييت من ربى ولكنى أرضى وأسلم، فلما بعدنا نادى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى[٢].

وقد وصف القرآن الكريم هذه المشاهد العظيمة لحظة وصوله إلى المكانة العظمى التى لم يصل إليها بشر من قبله ولا من بعده فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: ٨ - ١٨) وسدرة المنتهى التى وقف عندها رسول الله ﷺ هى شجرة نبق عظيمة هائلة أكبر من أى شجرة ضخمة رأيتها فى الدنيا ملايين المرات وعند سدرة المنتهى قنة المأوى وقد رأى الرسول ﷺ فى الجنة نهرًا صافيًا قد ضربت عليه خيام مرصعة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وعلى حافيته طيور خضر عليها نضرة النعيم فقال ﷺ: يا جبريل إن هذا الطير لناعم.

قال جبريل عليه السلام: يا محمد إن من يأكل من هذا الطير أنعم منه أتدرى يا محمد أى نهر هذا؟.

فقال ﷺ: لا.

قال جبريل: هذا نهر الكوثر الذى أعطاك الله إياه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر).

---

(١) هذا لفظ البخارى فى بعض الطرق.

(٢) زاد المعاد ١ / ٤٧، ٤٨.

فأخذ رسول الله ﷺ إناء من تلك الآنية والتى صنعت من الذهب الخالص واغترف به من ماء نهر الكوثر فشرب فإذا هو أحلى طعمًا من العسل وأزكى رائحة من المسك ثم رأى نهرًا آخر يسمى نهر الرحمة فاغتسل فيه فغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ثم رفع رسول الله ﷺ إلى الجنة فدخلها فإذا ترا بها المسك وجبالها اللؤلؤ ورأى فى الجنة أنهارًا من لبن لم يتغير طعمه وأنهارًا من خمر لذة للشاربين وأنهارًا من عسل مصفى ورأى من نعيمها ما لا سبيل إلى وصفه.

وقد رأى رسول الله ﷺ فى هذه الرحلة المباركة أمورًا عديدة فقد عرض عليه اللبن والخمر فاختار اللبن فقيل: هديت الفطرة أو أصبت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

ورأى رسول الله ﷺ مالكًا خازن النار فرحب به كما رحبت به الملائكة من قبل ولكنه كان عابسًا لم يبتسم كما ابتسمت الملائكة فعجب ﷺ وقال: يا جبريل من هذا الملك الذى قال لى مثل ما قالت الملائكة ولم يضحك ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيت منهم؟ فقال جبريل: هذا مالك خازن النار أما أنه لو كان ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكًا إلى أحد بعدك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك، فقال ﷺ لجبريل: ألا تأمره أن يرينى النار؟.

فقال جبريل: بلى ثم نادى جبريل مالكًا وقال له: أر محمدًا النار، فكشف مالك عن النار غطاءها ففارت... وارتفعت... حتى ظن الرسول أنها ستأتى على كل ما يرى... فيها غضب الله وزجره ونعمته لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها فقال ﷺ: يا جبريل: مره ليردها إلى مكانها الذى خرجت منه ورد عليها غطاءها.

الرائحـــة الطـــيبة:

كلنا يذكر الماشطة التى أقسمت بالله فقتلها فرعون بل أحرقها هى وأطفالها فى النار لقد انبعثت رائحة ماشطة ابنة فرعون الطيبة حين مرور رسول الله ﷺ فقال ﷺ لجبريل: ما هذه الرائحة؟ قال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها!!.

كان من أخبارها فى الدنيا أن سقط من يدها المشط الذى تمشط به شعر بنت فرعون فمالت عليه وأخذته بيدها قائلة: باسم الله، فقالت بنت فرعون: من الله هذا؟ أهو أبى!.

قالت الماشطة: لا: إنه ربى وربك ورب أبيك.

قالت بنت فرعون: ألك رب غير أبى؟.

قالت الماشطة: نعم... ربى وربك ورب أبيك... الله.

فلما بلغ الخبر فرعون دعاها فقال لها: ألك رب غيرى؟!.

قالت: نعم... ربى وربك الله عز وجل، فغضب فرعون وأمر بنار عظيمة فأوقدت فألقى فيها أولادها ما عدا طفلاً رضيعًا فأمرها فرعون أن تقذف بنفسها فى النار فتأخرت قليلاً من أجل ولدها الرضيع فناداها الرضيع قائلاً: يأمه! قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق... فانطلقت إلى النار فأحرقتها... وتلك الرائحة الطيبة رائحتها فى الآخرة.

ورأى رسول الله ﷺ أكلة أموال اليتامى ظلمًا لهم مشافر كمشافر الإبل يقذفون فى أفواههم قطعًا من نار كالأحجار فتخرج من أدبارهم.

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن مكانهم ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطئونهم.

ورأى ﷺ إبلاً وقوافل من أهل مكة فى رحلة الذهاب والإياب وقد دلهم على بعير هرب لهم وشرب ماءها من إناء مغطى وهم نائمون ثم ترك الإناء

مغطى وقد صار ذلك دليلاً على صدق دعواه فى صباح ليلة الإسراء[١] كما سنرى عند العودة.

رحلة العودة:

هبط النبى ﷺ إلى السماء الدنيا فنظر أسفل منه فرأى وهجًا ودخانًا وسمع أصواتًا، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟.

قال جبريل: هذه الشياطين تحوم على قلوب بنى آدم كى لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب.

واستمر ﷺ فى الهبوط حتى بلغ بيت المقدس فوجد الأنبياء فى وداعه فلما خرج ﷺ من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة والناس نيام فلما استيقظت مكة وعلت شمس الضحى ودبت فيها الحياة مضى ﷺ إلى مكان فجلس فيه يفكر فى أمره فرآه أبو جهل وكان كثيراً ما يستهزئ بالرسول ﷺ، فجاءه فقال له مستهزئًا: أراك ممعنًا فى تفكير عميق فهل حدث لك اليوم شيء جديد؟.

فقال ﷺ: نعم.

قال أبو جهل: وما هو؟.

قال ﷺ: إننى أسرى بى الليلة.

قال أبو جهل: إلى أين؟.

فقال ﷺ: إلى بيت المقدس.

برقت عينا أبى جهل من الدهشة وفغر فاه من شدة الدهشة ثم أضاف أبو جهل مستفسرًا: ثم أصبحت اليوم بيننا بعد أن سافرت وعدت...؟!! فقال النبى ﷺ فى ثقة واطمئنان: نعم.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٧، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، وزاد المعاد ٢/ ٤٧، وصحيح البخارى ١/ ٥٠، ٤٥٥، ٤٥٦، وصحيح مسلم ١/ ٩١: ٩٦.

سخر أبو جهل واستهزأ لأنهم يرحلون إلى بيت المقدس فى شهر ويعودون فى شهر وبدأ فى حركة مضطربة يقول للنبى ﷺ : أرأيت يا محمد إن أنا دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى؟.

فقال رسول الله ﷺ : نعم.

فنادى أبو جهل الناس بأعلى صوته قائلاً: يا معشر قريش يا بنى كعب بن لؤى فاجتمع الناس من كل مكان فى مكة فقال أبو جهل للرسول ﷺ :

حدث قومك بما حدثتنى به.

فقال ﷺ للناس: إنه أسرى بى إلى بيت المقدس.

فهاج القوم وضجوا ضجة عظيمة يكذبون ويضربون كفًا بكف ووضع بعضهم يده على رأسه عجبًا لهذا الكذب... كما يظنون.

وقال له رجل من الكفار هو المطعم بن عدى: والله يا محمد لقد كان أمرك فيما مضى أمرًا هينًا أما اليوم فقد أمعنت فى الكذب بما لا تصدقه العقول إننا نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدين شهراً ومنحدرين شهراً - أى أن السفر إلى الشام يستغرق شهراً فى الذهاب وشهراً فى الإياب -.

قال المطعم: تزعم أنك أتيته فى ليلة واحدة؟ واللات والعزى... لا أصدقك وما كان هذا الذى تقول قط!؟ وتوالت على رسول الله ﷺ الأسئلة من الكفار ولكن فى استهزاء شديد: فمنهم من يقول: وماذا رأيت هناك حينما وصلت إلى بيت المقدس؟.

وأبو جهل يسأل ويقول صف لنا الأنبياء؟

فوصفهم لهم.

فلما وصفهم قال أحدهم: لو أن أبا بكر سمع محمداً يقول ما يقول اليوم لكذبه ولانصرف عنه وكف عن منا صرته وتأييده وإذا انصرف عنه انصرف الكثيرون معه عن محمد فيهون شأنه ويضعف أمره، بحث الكفار عن أبى

بكر وجاءوا به وقالوا له: اسمع ما يقول صاحبك فقال أبو بكر: وما ذاك؟ قالوا: يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ثم أصبح بيننا!.

فقال: أوقد قال ذلك؟ قالوا: نعم.

قال أبو بكر: لئن كان قد قال ذلك فوالله لقد صدق، فقالوا في عجب: ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح.

فقال أبو بكر: نعم؟ إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه أن الخبر يأتيه من السماء في ساعة من ليل أو نهار أفلا أصدقه فيما هو أقل من ذلك عجباً؟!! انصرف أبو بكر ﷺ ومضى ومن معه إلى حيث كان رسول الله ﷺ يتحدث عن الإسراء وحوله الناس يكذبون ويضحكون ويعجبون فلما بلغوهم سمعوا المطعم بن عدى يقول: يا محمد صف لنا بيت المقدس.

هنا أحس رسول الله ﷺ بأنه في حيرة من أمره وأن كرباً أو غمّا لا مثيل له يستولى عليه لأنه لم يذهب إلى بيت المقدس قبل هذه الليلة وكان حين ذهب في إسرائه إلى بيت المقدس في حالة روحانية رائعة لا تسمح له بتأمل الحوائط والنوافذ وعند هبوطه من المعراج ودخوله المسجد كان المسجد غاصّا بالأنبياء الذين سبقوه بالنبوة.

توقف رسول الله ﷺ برهة ولم يجب بشيء مما طلبه المطعم بن عدى لأنه لا يجد ما يجيب به.

وهنا حدثت المعجزة وأدرك الله رسوله بفضله فأظهر له بيت المقدس أمامه جليّا واضحاً وجعل ﷺ يصفه باباً باباً وموضعاً موضعاً.

صاح أبو بكر ﷺ في حماسة وابتهاج يردد: صدقت يا رسول الله أشهد أنك رسول الله.

أما الكفار فقد نظر بعضهم إلى بعض في دهشة وقال أحدهم: يا قوم ألم يخبركم الوليد بن المغيرة أن هذا الرجل ساحر والله لقد صدق الوليد فما سمعناه اليوم هو السحر بعينه.

عند ذلك ولما رأوا صدق وصفه اتجهوا إلى أمور أخرى يسألون عنها رسول الله ﷺ ظنّا منهم أنهم سيسكتونه أو يكذبونه.

فقال أحدهم: يا محمد خبرنا عن عير لنا (قافلة) ذهبت بتجارتنا إلى الشام أين مكانها الآن فى الطريق؟.

فقال النبى ﷺ: مررت بهذه العير بوادى كذا وأنا متوجه إلى الشام فأنفرهم - شتتهم - حس الدابة (البراق) لأن البراق كان له فى سيره حس مخيف فأزعج القوم وجعل إبلهم تنفر فشرد لهم بعير فدللتهم على مكانه، فلما عادت هذه القافلة إلى مكة أخبرت بصدق النبى ﷺ ولكنهم علقوا على ذلك بقولهم: هذا هو السحر.

وقال آخر: إن لنا عيرًا (إبلاً) فأخبرنا بمكانها ومتى تجىء؟.

فقال ﷺ: تأتيكم هذه العير يوم كذا يقدمها جمل أورق عليه غطاء من الصوف الأسمر عليه غرارتان.

فلما كان ذلك اليوم خرجت قريش لتنظر هل يصدق أم يكذب فكاد النهار ينتهى والشمس تغرب فقال أحدهم متهكمًا: انتهى اليوم ولم تقدم العير بطل سحر محمد.

ولم يتم كلمته حتى صاح أحد المؤمنين: الله أكبر هذه طلائع العير قد ظهرت وقدمت العير وفى طليعتها جمل أورق عليه غطاء من الصوف الأسمر كما أخبر ﷺ.

فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا وأبى الظالمون إلا كفورًا[1] ويقال: سمى أبو بكر رضي الله عنه صديقًا لتصديقه هذه الواقعة حين كذبها الناس.

ومما رأى رسول الله ﷺ رأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث المنتن ويتركون الطيب السمين.

---

(١) زاد المعاد ١/ ٤٨ وانظر أيضًا صحيح البخارى ٢/ ٦٨٤ وصحيح مسلم ١/ ٩٦ وابن هشام ١/ ٤٠٢.

ورأى ﷺ النسـاء اللاتى يدخلن على الرجـال من ليس مـن أولادهم رآهن معلقات بثديهن.

قال رسول الله ﷺ لقريش: إنه رأى عيراً من أهل مكة وقد دلهم على بعير ند لهم وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون ثم ترك الإناء مغطى وقد صار كل ذلك دليلاً على صدق دعواه في صباح ليلة الإسراء.

وكان الإسراء والمعراج ترويحًا عن نفس النبى ﷺ فى وقت اشتد إيذاء الكفار فيه له ولأصحابه وفقد فيه آخر ما يحب فى الدنيا خديجة وأبا طالب.

الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة

بدأت الاضطهادات فى السنة الرابعة من النبوة بدأت ضعيفة ثم ازدادت يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر حتى اشتدت وبلغت ذروتها فى أواسط السنة الخامسة حتى أصبح المقام فى مكة بالنسبة للمسلمين أمرًا صعبًا للغاية وفى هذه الأثناء نزلت سورة الكهف وقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من بلاد الكفر حرصًا على الدين وخوفًا من الفتنة.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانة من الله ومن حماية عمه أبى طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء فقال ﷺ لأصحابه: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارًا إلى الله بدينهم فكان أول هجرة كانت فى الإسلام.

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه ومعه امرأته رقيه بنت رسول الله ﷺ والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة وامرأته أم سلمة بنت أمية وعثمان بن مظعون وغيرهم وكان ذلك فى شهر رجب من السنة الخامسة للنبوة وكان مجموعهم اثنى عشر رجلاً وأربعة نسوة رئيسهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وقد قال فيهما الرسول ﷺ: إنهما أول بيت هاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام(١).

وكان رحيل هؤلاء تسللاً فى ظلمة الليل حتى لا تفطن لهم قريش خرجوا

---

(١) زاد المعاد جـ١ ص٣٤.

إلى البحر ويمموا ميناء شعيبة وقيضت لهم الأقدار وأوجدت سفينتين تجاريتين أبحرتا إلى الحبشة وقد لحق بهم جعفر بن أبى طالب وغيره من المهاجرين حتى وصل عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً غير النساء[١].

ركبوا جميعًا السفينتين وأبحرتا بهم إلى الحبشة ولما علمت قريش بخروجهم خرجت تلاحقهم لكنهم لما وصلوا الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين وأقام المسلمون فى أحسن جوار[٢]، فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم سكنوا فى ديار واستقروا اجتمعوا وائتمروا وقرروا أن يبعثوا خلفهم رجلين من قريش إلى النجاشى فيردهم النجاشى على قريش فيرجعوهم عن دينهم ويفتنوهم فيه فبعثوا عمراً بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة وجمعوا لهما هدايا للنجاشى وبطارقته ثم بعثوهما إليه.

وقد تحدثت واحدة من النساء اللاتى خرجن مهاجرات مع أزواجهن إلى الحبشة عن رحلتهن وهى أم سلمة زوج رسول الله ﷺ فيما بعد فقالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشى أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه فلما علمت بذلك قريش ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين جلدين وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يحب هدايا مكة وكان أحب ما يأتى النجاشى من هدايا مكة هو الجلود فجمعوا له جلوداً كثيرة ولم يتركوا بطريقًا من بطارقته إلا أهدوا إليه هدية وكانت قريش قد قالت لعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة: أعطوا كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ثم يقدما للنجاشى هديته ثم يسألاه أن يسلمهم إليهما قبل أن يكلمهم فلما وصل الرجلان إلى الحبشة

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) زاد المعاد ١/ ٢٤

ووزعا الهدايا جمع البطارقة وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد لجأ إلى الحبشة بلد الملك غلمان منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع جديد لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك بشأنهم أشراف قومنا لنردهم إليهم فإن كلما الملك فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أبصر بهم وأعلم بما عابوا عليهم، فاستجاب البطارقة لهما وقالا: نعم.

ولما دخلا على النجاشى كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم إليهم فهم أعلم بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، فقالت البطارقة حول النجاشى: صدقا أيها الملك قومهم أعلم بهم ومما عابوا عليهم فسلمهم إليهم ليردوهم إلى بلادهم وقومهم[1].

فغضب النجاشى ثم قال: لا والله لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا ببلادى واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم (يقصد عمراً بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة) فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا غير ذلك حميتهم منهما وأحسنت إلى جوارهم ما جاورونى، قالت أم سلمة وهى تحكى قصة الهجرة إلى الحبشة: ثم أرسل النجاشى إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسول النجاشى اجتمعوا فيما بينهم ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للنجاشى إذا جئتموه؟.

قالوا: والله ما نقول إلا ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ، فلما جاءوا وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله فسألهم وقال لهم: ما هذا الدين

---

(١) السيرة لابن هشام.

الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟.

فوقف جعفر بن أبى طالب فقال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونترك ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - وذكر له كل أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فاعتدى[1] علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به عن الله من شىء؟ فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشى: فاقرأه علىَّ.

فقرأ عليه أول سورة مريم.

قالت أم سلمة: فبكى والله النجاشى حتى ابتلت لحيته وبكت أساقفته حين سمعوا ما تلى عليهم.

ثم قال لهم النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة أو نافذة واحدة.

---

(١) فى الأصل: فعدا علينا، انظر سيرة ابن هشام.

ثم نظر إلى عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة وقال لهما: انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما، فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما يقضى عليهم(١) فقال عبد الله بن أبى ربيعة: لا تفعل فإن لهم فينا أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا.

فاحتد عمرو بن العاص وقال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد.

ثم جاء الصبح فدخل على النجاشى وقال له: أيها الملك يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه، فأرسل النجاشى إليهم ليسألهم عنه فقال بعضهم لبعض ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً فى ذلك ما هو كائن - أى وليكن ما يكون - فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟

فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود - أى أنه مثل ما قال تمامًا - فغمغم البطارقة وتحدثوا كثيراً فنظر النجاشى إليهم وأشار إلى المسلمين قائلاً: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى من سبكم غرم ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها.

قالت أم سلمة: فخرجا من عنده مكروهين وقد ردت عليهما كل هداياهما وأقمنا بخير دار(٢).

---

(١) النص فى السيرة: والله لآتين بما أستأصل به خضراءهم.

(٢) السيرة لابن هشام.

أخفقت حيلة قريش فى استعادة المهاجرين إلى الحبشة وفشلت مكيدتهم وعرفوا أنهم لا يشيعون ضغينة إلا فى حدود سلطانهم فى مكة وبدأ الإسلام ظاهراً منتصراً عليهم فقد كان إسلام حمزة وهجرة المسلمين إلى الحبشة وفشل رسولى قريش فى إعادتهم واستمرار النبى ﷺ فى دعوته وصمود الضعفاء أمام قريش كل هذا كان بمثابة قوة للإسلام والمسلمين.

إسلام عمر بن الخطاب

عاد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة إلى مكة وقريش خائبين فى مسعاهما وردهما النجاشى بما يكرهون.

وأسلم عمر بن الخطاب وكان رجلاً قويًا فارسًا شجاعًا احتمى به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة حتى غلبوا قريشًا.

وكان لإسلام عمر رضي الله عنه قصة فقد ذكر أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد وهما يخفيان إسلامهما عن عمر وكان هناك رجل قد أسلم من بنى عدى أهل عمر وهو نعيم بن عبد الله وكان أيضًا يخفى إسلامه خوفًا من قومه.

ولما أسلمت فاطمة وزوجها كان يعلمهما القرآن خباب بن الأرت.

فخرج عمر بن الخطاب يومًا متوشحًا سيفه وهو يزمجر يريد رسول الله ﷺ وبعضًا من أصحابه قد كلمه الناس عليهم أنهم اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى ابن أبى طالب فى رجال من المسلمين فمن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً الذى فرق أمر قريش وعاب دينها وسب آلهتها أريده فأقتله!!

فقال له نعيم: والله لقد عزتك نفسك يا عمر أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟!.

أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرها؟.

قال عمر: وأى أهل بيتى؟.

قال: زوج أختك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما.

وقد أراد عبد الله أن يبعده عن رسول الله ﷺ حتى لا يؤذيه ويذهب إلى أخته وزوجها أهون من إيذاء الرسول ﷺ وأصحابه.

رجع عمر قاصداً دار أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد وعندهما خباب ابن الأرت معه صحيفة فيها سورة «طه» يقرأها على فاطمة وزوجها فلما سمعوا صوت عمر بن الخطاب اختفى خباب فى غرفة صغيرة داخل دارهم وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها.

أما عمر ﷺ فقد سمع حين اقترب من البيت سمع قراءة خباب سورة «طه» عليهما فلما دخل قال: ما هذه الهمهمة والصوت الذى سمعت؟ فقالت فاطمة وزوجها خوفًا: ما سمعت شيئًا، قال: بلى والله لقد أخبرت وسمعت أنكما تابعتما محمداً على دينه!

وعندما لم يجد إجابة شافية بطش بزوج أخته سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها وأصابها فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك!.

فلما رأى عمر ما بأخته من إصابة ودم ندم على ما كان يفعل وتراجع قائلاً لأخته: أعطينى هذه الصحيفة - التى سمعتكم تقرءون فيها - لكى أقرأ وأنظر ما جاء به محمد وكان عمر يقرأ ويكتب فلما قال ذلك قالت أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافى وحلف لها بآلهته أنه سيردها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت فاطمة فى إسلامه فقالت له: يا أخى إنك نجس على شركك وكفرك وإنه لا يمسها إلا الطاهر فقم فاغتسل.

فلما اغتسل أعطته الصحيفة وفيها سورة طه فقرأها فلما قرأ منها جزءاً قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

فلما سمع خباب كلامه هذا خرج إليه من مخبئه فقال له: يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه محمد فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام (أبو جهل) أو بعمر بن الخطاب! فالله الله يا عمر!.

فقال له عند ذلك عمر: فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو فى بيت الصفا[١] معه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه متوشحه ثم قصد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم فى الصفا فضرب عليهم الباب فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر وهو فزع فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف.

فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له فإن كان يريد خيراً أعطيناه وإن كان يريد شرّا قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله ﷺ: ائذن له، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى أمسك بجلبابه ثم جذبه جذبة شديدة حتى كاد أن ينكفئ على وجهه وقال له رسول الله ﷺ: « ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل بك الله قارعة (داهية) ».

فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله! فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر بن الخطاب قد أسلم.

فخرج كل واحد منهم من مكانه وقد عرف كل أحد منهم أن الله قد أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب رضي الله عنه كما أعزه بإسلام حمزة بن عبد المطلب وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ويقفان إلى جواره ضد أعدائه من قريش وتحدث عمر رضي الله عنه عن قصة إسلامه فقال:

---

(١) بيت الصفا هو دار الأرقم بن أبى الأرقم.

لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت فقلت: هو أبو جهل.

فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه فخرج إلىَّ أبو جهل فقال: مرحبًا بابن أختى - وكان أبو جهل خال عمر فأم عمر هى خيتمة بنت هشام بن المغيرة أخت أبى جهل ابن هشام -.

سأل أبو جهل ابن أخته عمر فقال: ما جاء بك؟

قال: جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به.

قال عمر: فضرب الباب فى وجهى وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به.

وكان أمرًا عجيبًا الخال الحكم بن هشام (أبو جهل) هو العدو الأول للرسول ﷺ وللإسلام وابن الأخت هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل!!.

المقاطعة وخبر الصحيفة

كان لإسلام عمر وحمزة ﷺ أثر كبير فى أرجاء مكة حتى طارت الأخبار للمهاجرين فى الحبشة وقالت الأخبار: إن أهل مكة جميعًا أسلموا فلما سمعوا ذلك عادوا من الحبشة واقتربوا من مكة فلما كانوا على مقربة من مكة عرفوا أن ما وصلهم من إسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل منهم أحد إلا بحماية أحد أو متخفيًا وكان جميع من قدم منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً منهم عثمان بن مظعون الذى أجاره الوليد بن المغيرة وحماه وغيرهم، أما بالنسبة لقريش فقد هزتها أربعة أحداث فى مدة قصيرة:

أولها: إسلام حمزة.

والثانى: إسلام عمر ﷺ.

والثالث: رفض رسول الله ﷺ مساومة قريش.

أما الأمر الرابع: فهو تعاهد بنى المطلب وبنى هاشم جميعًا ـ المسلم والكافر ـ تعاهدوا على حماية محمد وصد الأذى عنه، هذه الأمور الأربعة جعلت قريشًا فى حيرة شديدة فيما تفعل فلو أنها قامت بقتل محمد ﷺ فإن حربًا شديدة ستسيل دماء أهل مكة ولربما تقضى عليهم ففكروا فى أمر آخر يحاربون به محمداً وأصحابه.

اجتمعت قريش فى مكان لهم فى بنى كنانة يقال له وادى المحصب فتحالفوا على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يزوجوهم أو يتزوجوا منهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم حتى يسلموا لهم رسول الله ﷺ للقتل وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق جاء منها أيضًا أن لا يقبلوا من بنى هاشم صلحًا أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل».

ويقال: كتبها منصور بن عكرمة أو النضر بن الحارث ولكن الرسول ﷺ دعا على من كتبها فشلت يده[١].

ثم الاتفاق على الصحيفة وكتبت وعلقت فى جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم فدخلوا فى شعب أبى طالب فى المحرم من سنة سبع من بعثة النبى ﷺ.

واشتد الحصار وقطعت عنهم الأطعمة والزاد والماء فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه حتى تعب المسلمون وبلغ منهم التعب والجهد مبلغًا عظيمًا فكانوا يأكلون أوراق الشجر وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضورون ويتألمون من شدة الجوع الذى أصابهم من جراء الحصار.

وكان لا يصل إليهم شىء إلا سرًا وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا فى الأشهر الحرم وإذا اشتروا كانوا يشترون من القوافل التى تأتى من خارج مكة برغم أن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم سعر شراء السلع حتى يعجزوا عن دفع ثمنها وكان حكيم بن حزام يحمل قمحًا إلى عمته خديجة رضي الله عنها وقد تعرض له مرة أبو جهل فامسك به ليمنعه ولكن رجلاً هو أبو البخترى تدخل بينهما واستطاع أن يدخل حكيم بن حزام بالقمح إلى عمته.

وكان أبو طالب يخاف على ابن أخيه محمد ﷺ فكان إذا نام الناس أمر رسول الله ﷺ أن ينام على فراشه حتى يرى ذلك لينام على فراش رسول الله ﷺ وأمر ابن أخيه محمداً أن ينام فى فراش أبناء عمومته حتى يأمن غدر الغادرين، وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون فى أيام الموسم فيلقون الناس ويدعونهم إلى الإسلام.

استمرت هذا الحال ثلاث سنوات كاملة وفى المحرم سنة عشر من النبوة

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٤٦.

حدث نقض الصحيفة وذلك لأن قريشًا كانت على قسمين قسم راض بالصحيفة وما فيها وقسم كاره للصحيفة والميثاق وما فيه.

وممن كانوا يكرهون ما جاء فى الصحيفة هشام بن عمرو بن عامر وكان يذهب إلى بنى هاشم فى الشعب مستخفيًا بالليل وهو يحمل إليهم الطعام ذهب هشام إلى زهير بن أمية المخزومى وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب وقال: يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وأخوالك على هذه الحال؟

فقال زهير: فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معى رجل آخر لقمت بنقض الصحيفة، قال هشام: قد وجدت لك رجلاً ثانيًا.

قال زهير: من هو؟

قال هشام: أنا.

قال زهير: ابحث لنا عن رجل ثالث.

فذهب هشام إلى المطعم بن عدى فذكره بقرابة بنى هشام وبنى المطلب ابنى عبد مناف ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم.

فقال المطعم: ويحك ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد.

قال هاشم: قد وجدت لك ثانيًا، قال: من هو؟ قال: زهير بن أمية.

وكذلك ذهب إلى أبى البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود ـ فاجتمعوا.

فقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا جاءوا إلى أنديتهم وأصبح زهير عليه ثوب جديد فطاف بالبيت سبعًا ثم أقبل على الناس فقال: ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبيعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل وكان فى ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة

ابن الأسود: أنت يا أبا جهل والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت. قال أبو البخترى: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به.

قال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها.

وأيده هشام فى نقض الصحيفة.

فقال أبو جهل: هذا أمر قض بليل واتفقتم عليه من قبل فى غير هذا المكان.

وكان أبو طالب جالسًا فى ناحية المسجد إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله على أمر الصحيفة وأنه أرسل عليها الحشرة أو الأرضة فأكلت جميع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت اسم الله عز وجل وذكره فأخبر بذلك عمه فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا فإن كان كاذبًا خلينا بينكم وبينه وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا.

قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبى جهل قام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم» وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

وبذلك تم نقض الصحيفة وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته وهى خبر أكل الحشرة لكل ما كتب فى الصحيفة إلا اسم الله عز وجل ولكنهم لا يتعظون أبدًا فكما أخبر الله عز وجل عنهم فى قوله الكريم.

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ٢).

لقد أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفرًا إلى كفرهم[١].

---

(١) انظر صحيح البخارى باب نزول النبى ﷺ بمكة ١/ ٢١٦ وباب تقاسم المشركين على النبى ﷺ ١/ ٥٤٨ زاد المعاد ٢/ ٤٦ وسيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٧ وما بعدها.

عـــام الحـــزن

وكان العام العاشر من بعثة النبى ﷺ يسمى عام الحزن فقد ألح المرض بأبى طالب فلم يلبث أن مات وكانت وفاته فى رجب من هذه السنة بعد خروجه من الشعب بستة أشهر وقد توفى قبل خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام.

وكان أبو طالب سدًا منيعًا يقف إلى جوار ابن أخيه محمد ﷺ كان بمثابة الحصن الذى تحتمى به الدعوة الإسلامية من إساءات وإيذاء الكفار والسفهاء ولكنه بقى على ملة قريش وبعد وفاة أبى طالب توفيت خديجة قيل بعده بثلاثة أيام وقيل شهرين وما هو ثابت أنها رضي الله عنها توفيت ولها خمس وستون عامًا ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره.

وخديجة كانت نعمة مهداة من الله إلى رسول الله ﷺ فقد صاحبته خمسًا وعشرين عامًا تحبه وتحنو عليه وتؤازره فى أحرج أوقاته وساعاته وكانت تعينه على إبلاغ رسالته وتشاركه فى الجهاد ومرارته وتواسيه بمالها ونفسها وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ «آمنت بى حين كفر بى الناس وصدقتنى حين كذبنى الناس وأشركتنى فى مالها حين حرمنى الناس ورزقنى الله ولدها وحرم ولد غيرها»[1]، وقد روى أن جبريل أتى النبى ﷺ فقال: «يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»[2].

كانت هاتان الحادثتان مؤلمتين وحدثتا فى وقت قريب: أبو طالب مانع ابن أخيه من جبروت قريش وخديجة الحبيبة المخلصة المؤمنة ذهبت أيضًا

(١) رواه أحمد فى مسنده ٦/ ١١٨.

(٢) صحيح البخارى: باب تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها ١/ ٥٣٩.

وتركته وحيداً فقد كانت تؤنس نفسه وتبهج فؤاده وما أشعر الرسول ﷺ بالحزن الشديد أن قريشًا تطاولت عليه بعد موت أبى طالب وكاشفوه بالأذى فازداد حزنًا على حزن حتى ضاق صدره منهم.

ومما روى عن تطاول قريش عليه بعد موت أبى طالب أن سفيهًا من سفهاء قريش اعترضه فنثر على رأسه ترابًا ودخل بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك قال: ويقول بين ذلك.

ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب(١).

من هذه الأحزان والآلام التى مرت برسول الله ﷺ أطلق على العام العاشر عام الحزن.

زواج الرسول بالسيدة سودة بنت زمعة ﵂:

كانت السيدة سودة بنت زمعة ممن أسلم قديمًا وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة وكان زوجها السكران بن عمرو وكان قد أسلم وهاجر معها فمات بأرض الحبشة فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها فى شوال من السنة العاشرة من النبوة وكانت السيدة سودة ﵂ أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة وبعد عدة أعوام وهبت ليلتها للسيدة عائشة.

الأراشى وأبو جهل:

قدم رجل من أراش بإبل له إلى مكة فاشتراها أبو جهل وماطله فى ثمن الإبل وتهرب من دفع أثمانها فأقبل الأراشى على ناد قريش بمكة ورسول الله ﷺ فى ناحية من المسجد جالس فقال: يا معشر قريش من رجل يعيننى على أبى الحكم بن هشام (أبو جهل) فإنى رجلٌ غريب عابر طريق وقد غلبنى على حقى؟.

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ١٣/ ٤١٦.

فقال له أهل ذلك المجلس من قريش: أترى ذلك الرجل الجالس - وهم يقصدون رسول الله ﷺ - وهم يهزءون به لما يعرفون ما بينه وبين أبى جهل من عداوة - اذهب إليه فإنه يؤديك عليه ويأخذ حقك منه.

فأقبل الأراشى حتى وقف عند رسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام (أبو جهل) قد غلبنى على حق لى قبله وأنا رجل غريب ابن سبيل وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يعيننى عليه يأخذ لى حقى منه فأشاروا لى إليك فخذ لى حقى منه يرحمك الله، فقال رسول الله ﷺ: انطلق إليه وقام معه رسول الله ﷺ فلما رأت قريش أنه قام معه قالوا لرجل منهم: اتبعه فانظر ماذا يصنع؟ وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ قال: محمد فاخرج إلى فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة - أى من روح - فتغير لونه فقال ﷺ لأبى جهل: أعط هذا الرجل حقه.

قال أبو جهل: نعم لا تبرح حتى أعطيه الذى له فدخل ثم خرج إليه بثمن الإبل فدفعه إليه، ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للأراشى: الحق بشأنك، فأقبل الأراشى حتى وقف على مجلس قريش فقال: جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لى حقى يقصد رسول الله ﷺ وجاء الرجل الذى بعثوا معه خلف الرجل ليرى ما سيحدث للرسول الله ﷺ مع أبى جهل.

فقالوا: ويحك! ماذا رأيت؟.

قال: عجبًا من العجب والله ما هو إلا ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه فقال له: أعط هذا حقه.

فقال: نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه فدخل ثم خرج إليه بحقه فأعطاه إياه!.

ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فقالوا له: ويلك! ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت أبداً!.

قال أبو جهل: ويحكم.

والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبًا ثم خرجت إليه فإذا فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا رقبته ولا أنيابه لفحل مثله قط! والله لو أبيت لأكلنى(١) .

(١) السيرة لابن هشام.

الرسـول ﷺ فى الطـائف

أراد رسول الله ﷺ أن يخرج بالدعوة من حدود مكة إلى القبائل والبلاد ففكر فى الطائف أو « ثقيف » وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً فخرج إليها ماشيًا على قدميه ومعه مولاه زيد بن حارثة وكان ﷺ كلما مر على قبيلة من القبائل وهو فى طريقه إلى الطائف دعاهم إلى الإسلام فلم تجب دعوته قبيلة واحدة.

فلما وصل إلى الطائف قصد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف وهم: عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وإلى نصرة الإسلام فقال أحدهم: أما وجد الله أحداً غيرك وقال الآخر: والله لا أكلمك أبداً إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك[١].

فقام رسول الله ﷺ وقد يئس من أن يستجيبوا أو يأتى منهم خير وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى وكره رسول الله ﷺ أن تعرف قريش رحلته إلى ثقيف فيثيرهم عليه.

وقال أهل ثقيف للرسول ﷺ: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس فوقفوا له صفين وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه ورجموا أقدامه حتى بدا الدم واضحًا فى نعليه وكان زيد بن حارثة مولاه وخادمه يقيه بنفسه حتى أصابته ضربات فى رأسه ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة على بعد ثلاثة أميال من الطائف فلما التجأ

---

(١) السيرة لابن هشام جـ١ ص٤١٩.

إلى الحائط رجعوا عنه وأتى رسول الله ﷺ إلى شجرة عنب فجلس تحت ظلها فلما جلس واطمأن دعا بالدعاء الذى يدل على أنه كان حزينًا فما لقى من الشدة آسفًا على أنه لم يؤمن به أحد فقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة أصحاب البستان تحركت له مشاعرهما وقرابتهما فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له عداس وقالا له: خذ قطفًا من العنب واذهب به إلى هذا الرجل فلما وضعه بين يدى رسول الله ﷺ مد يده قائلاً: باسم الله، ثم أكل.

فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له رسول الله ﷺ: من أى بلد أنت؟ وما دينك؟ قال عداس: أنا نصرانى من أهل نينوى فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى، قال له: وما يدريك بيونس بن متى؟

قال رسول الله ﷺ: ذاك أخى كان نبيًا وأنا نبى فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ وعلى يديه ورجليه يقبلها.

فلما رأى ابنا ربيعة ما يحدث قال أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك.

فلما جاء عداس قالا له: ما هذا؟ قال عداس: يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا الرجل لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى.

قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك دين النصرانية فإن دينك خير من دينه.

ورجع رسول الله ﷺ فى طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا محزونًا كسير القلب فلما اقترب من منازل مكة بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ينتظر أمر النبى ﷺ فى أن يطبق عليهم الجبلين فيقضى عليهم ويدمرهم.

وكانت عائشة ؓ قد سألت رسول الله قائلة: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟

قال ﷺ: لقيت من قومك ما لقيت وكان ما لقيت منهم يوم العقبة(١) إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا جبريل منها فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك(٢) وما ردوا عليك، وقد بعث الله لك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال: يا محمد ذلك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أى لفعلت والأخشبان: هما جبلا مكة جبل أبى قبيس والذى يقابله جبل قعيقعان - قال النبى ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئًا(٣).

أفاق رسول الله ﷺ من هذا العرض السماوى العظيم، الذى يؤكد نصر

---

(١) يقصد يوم الطائف أو ثقيف.

(٢) وهم أهل الطائف.

(٣) صحيح البخارى، كتاب بدء الخلق ١/ ٤٥٨، صحيح مسلم، باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ٢/ ١٠٩.

الله عز وجل لرسوله ﷺ من فوق سبع سماوات: ثم تقدم ﷺ فى طريق مكة حتى بلغ وادى نخلة؟ وأقام فيه أيامًا، وفى وادى نخلة بعث الله إليه نفرًا من الجن الذين ذكرهم الله تعالى فى موضعين من القرآن:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأحقاف: ٢٩ - ٣١).

وثانيهما فى سورة الجن قوله تعالى:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (الجن: ١، ٢).

فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين وكانوا سبعة آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا(١) ولما اقترب رسول الله ﷺ من مكة قال له زيد ابن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يقصد قريشًا، فقال ﷺ: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه وسار رسول الله ﷺ حتى اقترب من مكة فمكث فى غار حراء، وبعث رجلاً إلى الأخنس بن شريق ليجيبره كي يدخل مكة بأمان، فأجابه الأخنس قائلاً: أنا حليف، والحليف لا يجبر، فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال سهيل: إن بنى عامر لا تجبر على بنى كعب فبعث إلى المطعم بن عدى وكان كافرًا لم يدخل الإسلام فقال المطعم: نعم ثم تسلح بسلاحه ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإنى قد أجرت محمدًا ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش

---

(١) السيرة لابن هشام جـ١ ص٤٢٢ وزاد المعاد ٢ / ٤٦، ٤٧.

إنى قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته وقيل: إن أبا جهل سأل مطعماً: أمجير أنت أم على دين محمد مسلم؟ فقال: با مجير - فقال أبو جهل: قد أجرنا من أجرت(١).

وقد سخر الله عز وجل هذا الكافر المطعم بن عدى ولم يكن على دين محمد ﷺ لكى يجيره ويحميه عند دخوله مكة وهو عائد من الطائف، ولم ينس رسول الله ﷺ هذا الموقف لأن الإسلام لا ينسى صنائع المعروف فتذكر المطعم بن عدى وبين يديه أسرى الكفار بعد انتصاره عليهم فى غزوة بدر فقال فى أسارى بدر: لو كان المطعم بن عدى حيّا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له(٢).

---

(١) انظر السيرة لابن هشام وزاد المعاد - الطائف.

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٣.

عرض الرسول ﷺ الإسلام على القبائل والأفراد

عاد رسول الله ﷺ من الطائف وقومه أشد ما كانوا عليه من كفر وخلاف معه على الدين إلا عدد قليل ضعفاء فمن آمن به فبدأ رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل والأفراد وقد تحدث عن مشهد من مشاهد دعوته وعرض نفسه على القبائل رجل من أهل البيت(١) فقال:

«إني لغلام شاب مع أبى بمنًى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به.

وخلفه رجل أحول وضيء وله خصلتان من الشعر فإذا فرغ الرسول ﷺ من حديثه نادى هذا الرجل: يا بنى فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تتركوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن يدعوكم إلى البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

وكان هذا الرجل اللعين هو أبو لهب(٢).

القبائل التى عرض عليها الإسلام:

عرض رسول الله ﷺ الإسلام على قبائل كثيرة منها بنو عامر ومحارب وفزازة وغسان وحنيفة وعبس وكندة وكلب... وغيرهم فلم يستجب منهم أحد(٣).

---

(١) من حديث عبد الله بن عبيد الله بن عباس.

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص٤٢٣ مطبعة دار ابن كثير سوريا بتحقيق الأبيارى وصحبه.

(٣) روى ذلك الترمذى.

ومن أمثلة هذه القبائل:

(أ) بنو كلب:

جاء النبى إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه قال لهم: يا بنى عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه الإسلام وما عرضه عليهم منه.

(ب) بنو حنيفة:

ذهبت إليهم فى منازلهم فدعاهم إلى الله: وعرض عليهم نفسه فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًا منهم.

(جـ) بنو عامر بن صعصعة:

دعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فقال رجل منهم: والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب وقال للرسول ﷺ: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟

فقال ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا نصرك الله وأظهرك كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ثم رفضوا دعوته.

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ عجوز منهم لم يحضر معهم الموسم لكبر سنه وقالوا له: يدعونا أن نتبعه ونمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا، فلما سمع الشيخ ذلك وضع يده على رأسه ثم قال: يا بنى عامر هل من لحاق بهذا الرجل وتلاف ضياع هذه الفرصة إنه لحق فأين رأيكم وعقلكم أكان غائبًا عنكم(١)!!.

وعرض رسول الله ﷺ نفسه على سويد بن الصامت وكان سويد شاعرًا

---

(١) السيرة بتصرف للتوضيح جـ١ ص٤٢٤، ٤٢٥.

معروفًا من سكان يثرب (المدينة) ومن رجاحة عقله كان قومه يسمونه بالكامل لصبره وشعره وشرفه ونسبه جاء سويد إلى مكة حاجّا أو معتمرًا فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقال: لعل الذى معك مثل الذى معى، فقال رسول الله ﷺ : وما الذى معك؟ قال سويد بن الصامت: حكمة لقمان، قال ﷺ : اعرضها علىَّ، فعرضها.

فقال ﷺ : إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى علىَّ هو هدى ونور.

فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام فأسلم وقال: إن هذا القرآن حسن فلما عاد إلى المدينة قتل فى حرب بعاث ـ قتله الخزرج وكان من الأوس ـ قتل وهو مسلم.

أما الرجل الثانى فهو إياس بن معاذ كان غلامًا يافعًا حديث السن من سكان يثرب (المدينة) قدم فى وفد من الأوس جاءوا ليتحالفوا مع قريش ضد الخزرج فى يثرب وذلك قبل حرب بعاث فى أوائل سنة ١١ من النبوة وكانت الحرب على أشدها بين الأوس والخزرج فى المدينة وكان الأوس أقل عددًا من الخزرج فلما علم رسول الله ﷺ بمجىء وفد الأوس جاءهم فجلس إليهم (وكان الأوس أقل عددًا من الخزرج كما ذكرنا) جاءهم ﷺ وقال لهم: هل لكم فى خير مما جئتم له؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم أن يعبدو الله ولا يشركوا به شيئًا وأنزل علىَّ الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ: أى قوم يا قومى هذا والله خير مما جئتم له فأخذ رجل من وفد الأوس حفنة من التراب فرمى بها وجه إياس وقال دعنا عنك فلقد جئنا لغير هذا فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا فى عقد حلف مع قريش وكان هذا

الرجل الذى رمى وجه إياس بالتراب هو أبو الحيسر أنس بن رافع[١] وبعد رجوعهم إلى يثرب (المدينة) مات إياس وكان يهلل ويكبر ويحمد ويسبح عند موته فقيل إنه مات مسلماً.

أبو ذر الغفارى:

روى أبو ذر رضي الله عنه قصة لقائه برسول الله ﷺ وعرضه الإسلام عليه فقال: كنت رجلاً من غفار فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبى فقلت لأخى: انطلق إلى هذا الرجل وكلمه وائتنى بخبره فانطلق فلقيه ثم رجع.

فقلت: ما عندك؟

فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشر.

فقلت: لم تقل لى عنه قولاً شافيًا فأخذت جرابًا وعصا ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه وأشرب من ماء زمزم وأكون فى المسجد قال: فمر بى على فقال لى: كأن الرجل غريب، قلت: نعم، فقال: فانطلق إلى المنزل لا يسألنى عن شيء ولا أسأله ولا أخبره فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه وليس أحد يخبرنى عنه بشيء فمر بى على فقال: أما زلت لا تعرف منزلة بعد؟ قلت: لا، قال: فانطلق معى فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟

قلت له: إن كتمت عنى أخبرك، فوعدنى أن يكتم السر.

فقلت له: بلغنا أنه قد خرج من ههنا رجل يزعم أنه نبى الله فأرسلت أخى يكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر فأردت أن ألقاه.

فقال له: أما إنك قد رشدت هذا وجهى إليه ادخل حيث أدخل فإن رأيت أحداً أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى وامض أنت، فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبى ﷺ فقلت له: اعرض علىَّ

---

(١) السيرة جـ١ ٤٢٧، ٤٢٨.

الإسلام فعرضه فأسلمت مكانى فقال لى: يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فاقبل.

لكن أبو ذر قال للنبى ﷺ: والذى بعثك بالحق لأصرخن بإسلامى بينهم وجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال: يا معشر قريش إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالوا:

قوموا إلى هذا... فقاموا وضرب أبو ذر كى يموت ولكن العباس أدركه ووقع عليه ثم أقبل عليهم وقال ويلكم تقتلون رجلاً من قبيلة غفار؟ وتجارتكم وطريقكم على غفار، فتركوا أبا ذر، وفى اليوم التالى فعل أبو ذر مثلما فعل فى اليوم الأول فضربوه حتى كاد أن يموت وأنقذه العباس من بين أيديهم[(١)].

طفيل بن عمرو الدوسى:

وهذا الرجل هو رئيس قبيلة دوس وكان لقبيلته إمارة فى نواحى اليمن قدم إلى مكة فاستقبله أهلها وبذلوا له أجل تحية وأكرم تقدير وقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا (يقصدون النبى ﷺ) وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجه وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئًا.

ويحكى الطفيل قصته مع الإسلام فيقول: فوالله ما زالوا بى حتي أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه حتى حشوت أذنى حين غدوت المسجد كرسفًا خوفًا من أن أسمع قوله فجئت إلى المسجد فإذا هو قائم يصلى عند الكعبة فقمت قريبًا منه فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله فسمعت كلامًا

---

(١) القصة فى صحيح البخارى باب قصة زمزم ١/ ٤٩٩، ٥٠٠ وباب إسلام أبى ذر ١/ ٥٤٤، ٥٤٥.

حسنًا فقلت فى نفسى واثكل أمى والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىَّ الحسن من القبيح فما يعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسنًا قبلته وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصرف إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمى وتخويف الناس إياى وسد الأذن بالكرسف ثم سماع بعض كلامه، وقلت له: اعرض علىَّ أمرك فعرض على الإسلام وتلا علىَّ القرآن فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت له: إنى مطاع فى قومى وراجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آية فدعا.

وكانت آيته لما عاد إلى قومه أن جعل الله نوراً فى وجهه مثل المصباح فقال: اللهم فى غير وجهى أخشى أن يقولوا: هذا مثله، ودخل الطفيل على أبيه وزوجته فدعاهم إلى الإسلام فأسلما وأبطأ عليه قومه فى الإسلام لكنه لم يزل بهم حتى هاجر بعد الحديبية فقدم على الرسول وهو فى خيبر ومعه سبعون أو ثمانون بيتًا من قومه وقد أبلى فى الإسلام بلاء حسنًا وقتل شهيداً يوم اليمامة [١].

ضمار الأزدى:

هذا الرجل - ضمار الأزدى - كان من قبيلة أزد من اليمن وكان يشفى الناس من الريح جاء إلى مكة فسمع سفهاء الكفار يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أنى أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى فلقى الرسول ﷺ فقال: يا محمد إنى أرقى من هذا الريح فهل تحب أن أرقيك؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد.

---

(١) رواه مسلم.

فقال ضمار: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فاعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت قبل كلماتك هؤلاء، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه[١].

(١) انظر سيرة ابن هشام.

بدء إسلام الأنصار

مر رسول الله ﷺ بطريق منى فسمع أصوات رجال يتكلمون فتبعهم حتى لحقهم فلما لقيهم قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالى اليهود؟ قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم أنه للنبى الذى توعدكم به اليهود فلا تسبقكم إليه فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا وكان أهل يثرب (المدينة) ومنهم هؤلاء يسعدون حينما يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبيًا من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان سيخرج فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم[١].

وهؤلاء النفر الذين التقى بهم الرسول كانوا ستة جميعهم من الخزرج وهم:

١ - أسعد بن زرارة - من بنى النجار.
٢ - عوف بن الحارث ابن عفراء - من بنى النجار.
٣ - رافع بن مالك بن العجلان - من بنى زريق.
٤ - قطبة بن عامر بن حديدة - من بنى سلمة.
٥ - عقبة بن عامر بن نابى - من بنى حرام بن كعب.
٦ - جابر بن عبد الله بن رئاب - من بنى عبيد بن غنم.

وكان هؤلاء الستة من عقلاء الخزرج قد أنهكتهم الحرب مع الأوس وأزعجتهم فاستبشروا أن تكون دعوة الرسول ﷺ لهم سببًا لوقف الحرب فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم فعسى

(١) زاد المعاد ٢/٥١، السيرة لابن هشام.

أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ولما رجعوا إلى المدينة بلغوا الإسلام إلى ذويهم من الأنصار فلم تبق دار للأنصار إلا وقد علمت بأمر الدين الجديد وذكر رسول الله ﷺ .

بيعة العقبة الأولى

استدار العام ويبدو أن الستة نفر قد بلغوا الرسالة فلما جاء الموسم التالى جاء اثنا عشر رجلاً فيهم خمسة من الستة الذين قابلوا رسول الله ﷺ فى العام السابق، والسادس الذى لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رئاب، وجاء غيرهم سبعة وهم:

١- معاذ بن الحارث ابن عفراء - من بنى النجار من الخزرج.

٢- عبادة بن الصامت - من بنى غنم من الخزرج.

٣- ذكوان بن عبد القيس - من بنى زريق من الخزرج.

٤- يزيد بن ثعلبة - من حلفاء بنى غنم من الخزرج.

٥- العباس بن عبادة بن فضلة - من بنى سالم من الخزرج.

٦- أبو الهيثم بن التيهان - من بنى عبد الأشهل من الأوس.

٧- عويم بن ساعدة - من بنى عمرو بن عوف من الأوس.

وقد التقى هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى فبايعوه وقد روى أحدهم وهو عبادة بن الصامت قصة البيعة فقال: «إن رسول الله ﷺ قال: تعالوا بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تاتوا ببهتان تفترونه بين أيدكم وأرجلكم ولا تعصونى فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه» فبايعناه على ذلك[١].

---

(١) صحيح البخارى باب علامة الإيمان حب الأنصار ١/ ٧ باب وفود الأنصار ١/ ٥٥٠، ٥٥١ واللفظ من هذا الباب باب قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ (الممتحنة: ١٢) ٢٧١ باب الحدود وكفار ٢/ ١٠٠٣.

فلما انصرف القوم عن الرسول الله ﷺ بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب ابن عمير وهو من بنى هاشم بن عبد مناف هاجر إلى الحبشة - ومن أوائل المسلمين - وأمره رسول الله ﷺ أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين فكان يسمى المقرئ بالمدينة ونزل عند أسعد بن زرارة فى المدينة وكان يصلى بهم.

بيعة العقبة الأولى ونجاح مصعب بن عمير

هاجر مصعب بن عمير إلى المدينة ونزل فى دار أسعد بن زرارة وأقام مصعب بين المسلمين من الأوس والخزرج يعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن حتى عرف بينهم بالمقرئ.

وقد بذل مصعب جهداً عظيمًا ومعه أسعد بن زرارة فى نشر الإسلام بين أهل يثرب وها هو يخرج يومًا بصحبة أسعد بن زرارة يريد دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر فدخلا فى حائط من حوائط بنى ظفر وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق واجتمع إليهما رجال من المسلمين وسعد بن معاذ وأسيد ابن الحضير سيداً قومهما من بنى عبد الأشهل وكان فى هذا اليوم على دين الشرك فلما سمعا بذلك قال سعد بن معاذ لأسيد بن الحضير: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا ديارنا فإن أسعد بن زرارة ابن خالتى ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه وجاء أسيد فوقف عليهما متشتماً وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت بكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: أنصفت ثم ركز حربته وجلس فكلمه مصعب بالإسلام وتلا عليه القرآن قال: فوالله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتهلله ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين ثم قال: إن ورائى رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه

أحد من قومه وسأرشده إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد فى قومه وهم جلوس فى ناديهم فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وصل أسيد إلى ناديهم قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

واحتال أسيد بحيلة تجذب سعداً إلى مجلس مصعب بن عمير فقال:

سمعت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك فقام سعد مغضبًا من الذى سمعه فأخذ حربته وخرج إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما فوقف عندهما يشتم ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لو ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى تنشرا فى دارنا ما نكره.

وكان أسعد قد قال لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره قال: قد أنصفت ثم ركز حربته فجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن فقال: قد عرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتهلله ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين ففعل ذلك.

ثم أخذ حربته فاقبل إلى نادى قومه فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذى ذهب به، فلما وقف عندهم قال: يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟.

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله،

فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا أمسى مسلمًا ومسلمة إلا رجل واحد كان يسمى الأصيرم وهذا الرجل تأخر إسلامه إلى يوم غزوة أحد فأسلم فى ذلك اليوم وقاتل وقتل ولم يسجد لله سجدة فقال النبى ﷺ : عمل قليلاً وأجر كثيراً.

وظل مصعب فى بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

وقبل موسم الحج التالى عاد مصعب إلى مكة وقص على النبى ﷺ خبر المسلمين بالمدينة وما هم عليه من منعة وقوة وأنهم سيجيئون إلى مكة موسم حج هذا العام الجديد أكثر عدداً وأعظم بالله إيمانًا.

بيعة العقبة الثانية

وجاء الموسم فى هذه السنة وكان الأنصار أكثر عدداً كما قال مصعب بن عمير وكان المسلمون من بينهم خمسة وسبعين مسلماً منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان فلما عرف محمد ﷺ مقدمهم فكر فى بيعة ثانية تكون حلفاً يدفع به المسلمون الأذى عن أنفسهم والعدوان بالعدوان، واتصل النبى سرّاً بزعمائهم وعرف حسن استعدادهم فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة فى جوف الليل وكتم مسلمو يثرب (المدينة) من معهم من المشركين أمرهم، وانتظروا حتى مضى ثلث الليل من يوم موعدهم مع النبى ﷺ فقد خرجوا من رحالهم يتسللون تسلل القطا مستخفين حذر أن ينكشف سرهم.

فلما كانوا عند العقبة تسلقوا الشعب جميعًا وتسلقت المرأتان معهم وأقاموا ينتظرون محمداً ﷺ.

لذلك كان العباس أول من تكلم فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا وهو فى عز وحماية قومه فى بلده وقد رغب أن ينحاز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم وإن كنتم ستخذلونه فاتركوه.

فقالوا: سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فأجاب محمد بعد أن تلا القرآن ورغب فى الإسلام:

أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

وكان البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم وأسلم بعد العقبة الأولى فمد يده لرسول الله وقال: بايعنا يا رسول الله: فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

وقبل أن يتم البراء كلامه وقف أبو الهيثم بن التيهان وقال:

يا رسول الله، إن بيننا وبين اليهود عهوداً نحن قاطعوها فإن فعلنا نحن ذلك ثم نصرك الله وأظهرك ترجع إلى قومك وتتركنا.

فتبسم النبى ﷺ وقال: بل الدم الدم، والهدم الهدم[1] أنتم منى وأنا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

وقبل أن يمدوا أيديهم لمبايعة الرسول ﷺ قال العباس: أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل؟ يقصد محمداً ﷺ -إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فوافقوا العباس على قوله ثم قال لهم الرسول ﷺ: أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم كفلاء، فأخرجوا من بينهم نقباء ينوبون عنهم وتم انتخابهم فى الحال، فكان تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وهاك أسماؤهم:

نقباء الخزرج:

١- أسعد بن زرارة.
٢- سعد بن الربيع بن عمرو.
٣- عبد الله بن رواحة.
٤- رافع بن مالك بن عجلان.
٥- البراء بن معرور بن صخر.
٦- عبد الله بن عمرو بن حرام.
٧- عبادة بن الصامت بن قيس.
٨- سعد بن عبادة.
٩- المنذر بن عمرو بن خنيس.

---

(١) الهدم الهدم: يريد أن من قاتلكم قاتلناه ومن أهدر دمكم أهدرنا دمه.

نقباء الأوس:

١- أسيد بن حضير.

٢- سعد بن خيثمة.

٣- رفاعة بن عبد المنذر.

وقام الجميع يبايعونه واحداً واحداً، وبعد أن أبدى الجميع استعداده للتضحية بماله ونفسه وولده من أجل الإسلام ورسوله وكان أول من وضع يده في يد رسول الله أسعد بن زرارة ﷺ.

أما بيعة المرأتين فكانت قولاً، فما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط[١]، وقال الرسول ﷺ للنقباء الأثنى عشر لما تم اختيارهم: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الجواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم.

وقد تحدث جابر بن عبد الله - أحد الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ في العقبة - فقال جابر: قلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال ﷺ:

١- على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

٢- وعلى النفقة في العسر واليسر.

٣- وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم.

٥- وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة[٢].

ولما تم إبرام البيعة وأوشك الجميع على الانصراف اكتشفها أحد

---

(١) انظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ٢/ ١٣١.

(٢) رواية الإمام أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان.

الشياطين وهى سرية وأعلم قريشًا بها وقال لهم: يا أهل المنازل، هل لكم فى محمد والأنصار[١] معه؟ قد اجتمعوا على حربكم.

فقال رسول الله عن هذا الشيطان: أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك، ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم[٢].

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال أحد الأنصار - وهو العباس بن عبادة للرسول ﷺ: والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا وناموا حتى أصبحوا[٣].

وصل الخبر إلى آذان قريش وأثار فى نفوسهم ضجة وغضبًا لأنهم يعرفون جيداً عواقب هذه البيعة وهذا الحلف عليهم وعلى أموالهم وتجارتهم وأنفسهم.

فلما أصبحوا توجه وفد كبير من زعماء مكة وكفارها إلى مخيم أهل يثرب (المدينة) ليحتجوا على هذه البيعة أو المعاهدة فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى محمد تستخرجونه من بيننا وتعاهدونه على حربنا وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم[٤].

وكان أهل هذا المخيم لا يعرفون شيئًا عن اتفاق محمد ﷺ والثلاثة والسبعين رجلاً الذى تم ليلاً فحلفوا لهم أنهم لا يعلمون عن ذلك شيئًا، ولما جاءوا إلى عبد الله بن أبى ابن سلول، وهو من يهود المدينة فجعل يقول: هذا باطل وما كان يحدث هذا لو كنت بالمدينة.

(١) النص: هل لكم فى محمد والصباه معه انظر زاد المعاد ٢ / ٥١.
(٢) ابن هشام ١ / ٤٤٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر زاد المعاد ٢ / ٥١.

سكت زعماء قريش وصدقوا هؤلاء المشركين فرجعوا إلى مكة خائبين لا يستطيعون عمل شيء وكذبوا الخبر ولكنهم بدأوا يبحثون ويتصيدون الأخبار إلى أن تأكد لهم أن الخبر صحيح وأن محمداً ﷺ قد أتم البيعة مع أهل يثرب وهم الأنصار فسارع فرسان قريش لمطاردة هؤلاء فى الطرقات والجبال ولكنهم كانوا قد مضوا إلى مدينتهم دون أن يلحق بهم أحد إلا رجلين تمكنت قريش من رؤيتهما هما سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردوهما فأما المنذر بن عمرو فقد عجزوا فى القبض عليه وأما سعد بن عبادة فقد ألقوا القبض عليه فربطوا يديه إلى عنقه وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة فجاء المطعم بن عدى والحارث بن حرب فخلصاه من أيديهم فقد كان سعد بن عبادة يحمى قوافلهم التى كانت تمر بالمدينة وانتظره الأنصار لما تأخر عليهم وكادوا أن يعودوا إليه لولا أن طلع عليهم فوصل القوم جميعًا إلى المدينة.

وبدأ الإسلام يمكن نفسه فى المدينة من خلال هؤلاء الرجال المؤمنين بالله المخلصين لدينهم ولرسولهم الذين ناصروه فعرفوا بأنهم الأنصار، والأنصار هم المسلمون من أهل المدينة، كما أن المهاجرين هم المسلمون من أهل مكة.

وأصبحت المدينة الآن مهيأة لاستقبال المسلمين من أهل مكة - المهاجرين.

الهجـــــرة النبـــــوية

كانت بيعة العقبة الثانية بمثابة نصر عظيم للإسلام والرسول ﷺ إذ وجدت موطئ قدم لوطن آخر غير مكة يعلو فيه شأن الإسلام إلى أن يريد الله عز وجل بخير كثير.

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يلحقوا بالأنصار بيثرب على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم وبدأ المسلمون يهاجرون فرادى أو نفراً قليلاً.

وكان أول المهاجرين أبو سلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة وزوجته وابنه فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره أهل زوجته: هذه نفسك غلبتنا عليها أما زوجتك أم سلمة وهى ابنتنا علام نتركك تسير بها فى البلاد فأخذوا منه زوجته وغضب آل أبى سلمة لابنهم ورجلهم فقالوا: لا نترك ابننا معها إذ أخذتموها من زوجها، وكان معها طفل من أبى سلمة وتجاذبوا الطفل بينهم فخلعوا يده وذهبوا به وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حى تمسى، ومضى على ذلك نحو سنة، فرقٌ لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها فقالوا لها: الحقى بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبته وخرجت تريد المدينة، ومضت فى الطريق وحيدة وليس معها أحد من خلق الله حتى إذا كانت بالتنعيم خارج مكة لقيها عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، وبعد أن عرف حالها تابعها حتى أوصلها إلى المدينة، فلما وصل إلى قباء قال: زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة(١).

(١) ابن هشام ص٤٦٨، ٤٦٩.

صهيب بن سنان:

لما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكا حقيراً فقيراً، فكثر مالك عندنا، ووصلت إلى ما وصلت إليه، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟! والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالى، أتخلون سبيلى؟ قالوا: نعم، قال: فإنى جعلت لكم مالى، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»(١).

عمر بن الخطاب:

تواعد عمر بن الخطاب وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاصى بن وائل على مكان يلتقون عنده فى الصباح، ثم يهاجرون إلى المدينة، فاجتمع عمر وعياش ولم يحضر هشام.

ولما قدما المدينة ونزلا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش فقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط ولا تستظل بشمس حتى تراك، فرقَّ لها، فقال له عمر: يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، وطلبوا منه أن يعود رحمة بأمه فأبى عياش ورفض.

فاحتال أبو جهل وقال له: خذ ناقتى هذه، فإن أردت الهروب من القوم ففر بها، فخرج عليها معهما حتى إذا خرجوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا بن أخى والله لقد صعب علىَّ بعيرى هذا، أفلا تجعلنى على نافتك هذه؟.

قال: بلى، فأناخ ناقته وأناخ أبو جهل والحارث ليتحول عليها، فلما استووا على الأرض هجما عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة نهاراً موثقًا، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا(٢) وكان قدوم عمر رضي الله عنه المدينة فى عشرين من صحابة رسول الله ﷺ(٣).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر ابن هشام ١ / ٤٧٤ : ٤٧٦.

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٥٨.

ورغم كل هذا فقد خرج المسلمون جماعات يتبع بعضهم بعضًا وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الثانية لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى، أقاما بأمره لهما وبعض الذين منعهم الكفار كرهًا وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر أمر الله بالخروج وأعد أبو بكر جهازه[١].

وقد قال رسول الله ﷺ للمسلمين: «إنى أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان، فهاجر من هاجر إلى المدينة ورجع من كان قد هاجر إلى الحبشة رجع إلى المدينة أيضًا وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك - أى انتظر - فإنى أرجو أن يؤذن لى».

فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال: «نعم».

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده، يعلفهما من أربعة أشهر[٢] وتهيأ بيت أبى بكر ﷺ كله لهذا الحدث دون أن يعلم أحد ذلك غير صاحب البيت وراعيه أبى بكر الصديق ﷺ فقد كتم السر.

كانت قريش تحسب ألف حساب لهجرة النبى ﷺ إلى المدينة، فقدكثر المسلمون فى المدينة كثرة جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا، وها هم المهاجرون من مكة ينضمون إليهم كل يوم فيزيدونهم قوة، فإذا لحق النبى ﷺ بهم بثباته وحسن رأيه وبعد نظره خافت قريش على نفسها أن يهاجم المسلمون مكة أو يقطعوا عليها الطريق إلى الشام وهو طريق تجارتها الهام أو يمنعوا عنهم الطعام أو يجيعوهم كما فعل الكفار معهم فى شعب أبى طالب.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٥٢.

(٢) انظر صحيح البخارى باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه ١/ ٥٥٣.

ولما رأى المشركون من أهل مكة أصحاب النبى ﷺ قد تجهزوا وخرجوا وحملوا وساقوا أطفالهم وأموالهم إلى الأوس والخزرج.

لما رأوا هذا كله اضطربوا ووقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان وأخذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقى الذى يهدد دينهم وأموالهم فقد تعاهد محمد ﷺ مع الأوس والخزرج وهما قبيلتان لهما من القوة والشجاعة وكثرة العدد ما يهدد قوة قريش ووجودهم غير موقع المدينة فى طريق تجارتهم ولم يبق أمامهم إلا التفكير فى التخلص من محمد بالقتل حتى يستريحوا من كل هذا القلق الذى أصابهم.

وبعد مرور أكثر من شهرين على بيعة العقبة الثانية عقد كفار مكة اجتماعًا حضره رؤساء القبائل من قريش ليتفقوا على خطة حاسمة للقضاء على حامل الدعوة الإسلامية، وكان من هؤلاء:

أبو جهل بن هشام، وجبير بن مطعم، وطعمة بن عدى، والحارث بن عامر، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبو البحترى بن هشام، وزمعة ابن الأسود، وحكيم بن حزام بن أسد، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف، وقد مثلوا قبائل قريش جميعًا: بنى مخزوم، وبنى نوفل بن مناف، وبنى عبد شمس، وبنى عبد الدار وغيرهم، ولما جاءوا دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس على هيئة شيخ وقور جليل فوقف على الباب فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذى تواعدتم عليه فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن تجدوا عندى رأيًا ونصحًا.

قالوا: نعم، فادخل - فدخل معهم.

وبعد أن تكامل العدد والاجتماع بدأت الاقتراحات ودار النقاش فقال أحدهم: نخرجه من بيننا وننفيه بعيداً عن بلادنا، ولا نبالى أين ذهب ولا

حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا وعدنا مجتمعين مرة أخرى، قال إبليس (الشيخ النجدى) : لا والله ما هذا برأى، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة كلامه وغلبته على قلوب الرجال بما يقول لهم؟ والله لو أخرجتموه ونقيتموه خارج بلادكم فيحل على حى من العرب ثم يعود به إليكم بعد أن يتابعوه فيدخل بهم بلادكم ثم يفعل بكم ما أراد.

ثم قال إبليس (الشيخ النجدى) : دبروا رأيًا غير هذا، فقال رجل آخر من قريش، وهو أبو البحترى : احبسوه فى الحديد واغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله حتى الموت.

فقال إبليس (الشيخ النجدى) : لا والله ما هذا لكم برأى، والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فيحاربوكم، ما هذا لكم برأى، فانظروا فى رأى غيره، وتحدث أبو جهل فقال : إن لى رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا : وما هو يا أبا الحكم؟.

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة منا فتًى شابا قويّا ثم نعطى كل فتًى سيفًا حارّا ثم يدخلوا عليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا.

قال إبليس - الذى جاء على هيئة شيخ من نجد : هذا هو الرأى الصحيح، فوافق الجميع على رأى واقتراح أبى جهل، ورجعوا إلى بيوتهم بعد أن صمموا على قتل محمد بهذه الطريقة على الفور[1].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ١ ص٤٨٠ : ٤٨٢.

بـــدء هجـــرة النبـــى ﷺ

أتى جـبـريلُ، عـليـه السـلام، رسـول الله ﷺ فـقـال: لا تبـت الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه[١] وأعلمه أن الله قد أذن له فى الخروج وحدد له وقت الهجرة قائلاً: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه، وذهب النبى ﷺ فى الظهيرة إلى أبى بكر ﷺ ليتفق معه على مراحل الهجرة، فقد ذكرت عائشة ﷺ هذا المشهد فقالت: بينما نحن جلوس فى بيت أبى بكر، فى نحر الظهيرة، قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر.

قال: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل، فقال النبى ﷺ لأبى بكر: أخرج من عندك» فقال أبو بكر:

إنمـا هم أهلك، بأبى أنت يا رسـول الله، قـال: «فـإنى قـد أذن لى فى الخروج» فقال أبو بكر: الصحبة بأبى أنت يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ: نعم[٢].

وبعد اتفاقه مع أبى بكر ﷺ رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ينتظر مجىء الليل.

أما قريش فقد جهزت أحد عشر فارسًا من قبائلهم لينفذوا الجريمة، وهى قتل الرسول ﷺ، وكانوا ـ كما ذكرنا ـ أحد عشر فارسًا، وهم:

١- الحكم بن العاص. ٢- عقبة بن أبى معيط.
٣- أمية بن خلف. ٤- طعيمة بن عدى.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص٤٨٢.
(٢) صحيح البخارى باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه ١ / ٥٣٣.

٥ - أبى بن خلف. ٦ - منبه بن الحجاج.
٧ - أبو جهل بن هشام. ٨ - النضر بن الحارث.
٩ - زمعة بن الأسود ١٠- نبيه بن الحجاج.
١١- أبو لهب.

فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على باب النبى ﷺ ينتظرون حتى ينام فيهجمون عليه، وكان أبو جهل بينهم يثق ثقة تامة فى نجاح خطته والقضاء على الرسول، حتى أنه قال وهو يفتخر ويختال، قال لأصحابه فى سخرية شديدة:

إن محمداً يزعم أنكم إن أسلمتم وتابعتم دينه كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنات الأردن، وإن لم تؤمنوا به كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد الموت فجعلت لكم ناراً تحرقون فيها (١).

بات هؤلاء الكفار متيقظون وكان موعدهم لتنفيذ المؤامرة هو بعد منتصف الليل ولكن الله ينصر عبده فهو غالب على أمره فقد حمى رسوله وخاطبه بما كان سيفعل به عندما قال له فيما بعد:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠) وخرج عليهم رسول الله ﷺ ومشى بينهم مخترقًا صفوفهم فأخذ حفنة من تراب فى يده وأخذ ينثر التراب على رءوسهم بعد أن أخذ الله بأبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر التراب على رءوسهم ويقرأ هذه الآيات من سورة يس: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ

(١) السيرة لابن هشام جـ١ ص ٤٨٣.

أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ١ - ٩).

فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ومضى إلى بيت أبى بكر فخرجا من خوخة فى دار أبى بكر ليلاً حتى لحقا بغار ثور فى اتجاه اليمن، وبقى الكفار يحاصرون بيت النبى ﷺ فى انتظار تنفيذ خطتهم الفاشلة، وفيما هم على هذه الحال جاءهم رجل ممن لم يكن معهم ورآهم بباب النبى ﷺ فقال: ما تنتظرون؟.

قالوا: محمداً.

قال: خبتم وخسرتم، لقد مر بكم ونثر على رءوسكم التراب وانطلق لحاجته.

قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم.

ولما نظروا من ثقب الباب رأوا عليّا، وكان النبى ﷺ قد أمر لعلى بن أبى طالب أن يتغطى ببرده الحضرمى الأخضر، وأن ينام فى فراشه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس، وجعل هؤلاء الفتية الكفار ينظرون من ثقب الباب إلى مكان نوم النبى ﷺ فيرون فى الفراش عليّا فاطمأنت نفوسهم إلى أنه محمد ﷺ ولم يخرج، أو يفر كما قال لهم صاحبهم، ولم يبرحوا مكانهم حتى أصحبوا وقام على عن الفراش فكانت مفاجأة لهم وسألوه عن رسول الله فقال: لا علم لى به[1].

كان الثلث الأخير من الليل حين خرج الرسول ﷺ فى غفلة منهم إلى دار أبى بكر، وخرج الرجلان من خوخة فى ظهرها وانطلقا جنوبًا إلى غار ثور، فاتجاههما جنوبًا، والمدينة شمالاً، لم يكن يرد ببال قريش وكان الطريق الذى يتوقع أن تطارد منه قريش الرسول هو طريق المدينة الرئيس المتجه

---

(١) انظر زاد المعاد ٢/ ٥٢ وسيرة ابن هشام جـ١ ص٤٨٣.

شمالاً، ولذلك فقد اتجه النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر ﷺ الطريق المضاد تماماً، وهو الطريق الواقع جنوب مكة والمتجه نحو اليمن، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى وصل إلى الجبل - جبل ثور - وهو جبل شامخ وعر الطريق، صعب الصعود، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله ﷺ، وقيل: بل كان يمشي على أطراف قدميه كي يخفي أثره، فحفيت قدماه، وقد عاونه أبو بكر حين وصل إلى الجبل حتى وصلا إلى الغار في قمة الجبل، الذي عرف في التاريخ بغار ثور(١)، لم يعلم بمخبئهما في الغار غير عبد الله بن أبي بكر وأختيه: عائشة وأسماء، وخادمهم أو مولاهم عامر بن فهيرة، أما عبد الله فكان يقضي نهاره بين قريش يستمع ما يقولون وما يأتمرون بمحمد ليقصه على الرسول ﷺ وعلى أبيه أبي بكر ﷺ، وأما عامر بن فهيرة فكان يرعى غنم أبي بكر، وكان إذا أمسى أراح عليهما، استراح عندهما، فيحلب اللبن، وإذا عاد عبد الله بن أبي بكر من عندهما تبعه عامر بالغنم حتى لا تتبع قريش أثره وتصل إلى الرسول ﷺ فكان بالغنم يمحي آثار أقدامه، وأقام الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر بالغار ثلاثة أيام، كانت قريش أثناءها تجد في البحث عنهما.

وأقبل فرسان قريش وفتيانها من كل بيت رجل يحملون أسيافهم وعصيهم وهراواتهم يدورون باحثين في كل اتجاه، ولقوا راعياً على مقربة من غار ثور سألوه: فكان جوابه:

قد يكونان بالغار، وإن كنت لم أر أحداً، خاف أبو بكر ﷺ وتصبب عرقاً حين سمع جواب الراعي، وخاف أن يقتحم فتيان قريش عليهما الغار فأمسك أنفاسه وبقي ساكناً بلا حراك، وأسلم أمره لله عز وجل، وأقبل بعض

---

(١) مشكاة المصابيح - باب مناقب أبي بكر ٢ / ٥٥٦.

الكفار يتسلقون إلى الغار ثم عاد أحدهم إلى الوراء فسأله أصحابه ما لك لم تنظر فى الغار؟.

فقال: إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد، وقد رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس أحداً فيه.

أما النبى ﷺ فكان يصلى ويسبح فى الغار فى الوقت الذى كان فيه أبو بكر يرتعد من الخوف، فيتقرب من صاحبه ويلصق نفسه به فيهمس محمد ﷺ فى أذنه: لا تحزن، إن الله معنا، وقد وصف القرآن الكريم هذا الموقف بالتحديد فقال تعالى: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

(التوبة: ٤٠)

وقد قال أبو بكر رضي الله عنه لما شعر بقرب الكفار الذين يبحثون عنهما ـ قال هامسًا: لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا.

فأجابه النبى ﷺ: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما!!.

وقد ازداد الكفار المحاصرين للغار اقتناعًا بأن الغار لا يوجد به أحد عندما رأوا الشجرة تدلت فروعها إلى فوهته ولا يمكن الدخول إليه إلا إذا أزيلت هذه الفروع من الشجرة، عندئذ انصرفوا جميعًا وسمع النبى ﷺ وأبو بكر انصرافهم ومناداتهم لبعضهم البعض، ورجع المطاردون، وهدأت المطاردة، وتوقفت أعمال البحث والتفتيش بعد استمرارها ثلاثة أيام متوالية، ولكن دون جدوى، عند ذلك تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر للخروج إلى المدينة.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثى وكان عارفًا بالطريق، ماهرًا بها، وكان على دين كفار قريش، وقد آمنه رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر،

وسلماه ناقتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال بنا قتيهما، فجاءهما عبد الله ابن أريقط فى الموعد المذكور بالراحلتين، وحينئذ قال أبو بكر للنبى ﷺ: بأبى أنت يا رسول الله، خذ إحدى راحلتى هاتين، وقرَّب إليه أحسنهما وأفضلهما، فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن» أى يريد أن يدفع ثمنها، وجاءت أسماء بنت أبى بكر ﵄ ومعها طعامهما، ونسيت أن تجعل لها شيئًا تحمل فيه الطعام، فلما لم تجد شقت نطاقها، فعلقت الطعام بواحد، وانتقطت بالآخر، فسميت ذات النطاقين(١).

ثم ارتحل رسول الله ﷺ ومعه صاحبه أبو بكر ﷺ ورحل معهما عامر بن فهيرة وكان دليلهم فى الطريق عبد الله بن أريقط على طريق الساحل ساحل البحر الأحمر.

وأول ما سلك بهم عبد الله بن أريقط بعد الخروج من الغار اتجه بهم اتجاه الجنوب نحو اليمن ثم اتجه غربًا نحو ساحل البحر حتى إذا وصل إلى طريق لم يعرفه ولم يألفه الناس اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر وسلك طريقًا لم يسلكه أحد إلا نادراً.

وتحدث أبو بكر الصديق ﵁ عن بعض أحداث الطريق.

فقال: «أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق لا يمر فيه أحد فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس فنزلنا عندها، وسويت للنبى ﷺ مكانًا بيدى(٢) ينام عليه وبسطت عليه فروة وقلت: نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك، فنام وخرجت انفض ما حوله، فإذا أنا براعٍ مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل الذى أردنا ـ أى: يريد الظل والراحة تحتها ـ فقلت له: لمن أنت يا غلام.

---

(١) صحيح البخارى جـ١ ص٥٣٣ ص٥٥٥ وابن هشام ١/ ٤٨٦.

(٢) أى ساوى الرمل وجعله مستويًا كى ينام الرسول ﷺ مستريحًا.

فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة.

قلت: أفى غنمك لبن؟.

قال: نعم.

قلت: أفتحلب؟

قال: نعم، فأخذ شاة، فقلت: انفض الضرع من التراب والشعر والقذى، فحلب فى كعب كثبة من لبن - أى شربة من اللبن - ومعى إناء حملتها للنبى ﷺ يرتوى منها، يشرب ويتوضأ فأتيت النبى ﷺ، فكرهت أن أوقظه فجئته حين استيقظ فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله، فقلت اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قال: ألم يأن الرحيل؟ قلت: بلى، فازتحلنا[1].

وفى الطريق كان أبو بكر ردفًا للنبى ﷺ، أى أنه خلفه دائمًا، وكان شيخًا كبير السن، أما نبى الله ﷺ فشاب لا يُعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول لأبى بكر: من هذا الرجل الذى بين يديك؟ فيقول أبو بكر: هذا الرجل يهدينى الطريق، فيحسب السائل أنه يعنى به الطريق - أى يهديه ويدله على الطريق - وإنما أبو بكر رضي الله عنه يقصد طريق الخير والهدى[2].

سراقة بن مالك والرسول ﷺ:

ولما عجزت قريش عن اللحاق بهما وضعت كل الطرق تحت المراقبة المسلحة وقررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائه ناقة عن كل واحد منهما محمد وأبى بكر لمن يعيدهما لقريش حيين أو ميتين، كائنا من كان[3].

وتبعهما فى الطريق سراقة بن مالك وتحدث سراقة عن مطاردته للرسول ﷺ وصاحبه أبى بكر فقال:

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥١٠.

(٢) انظر البخارى ١/ ٥٥٦ فى رواية أنس.

(٣) انظر صحيح البخارى ١/ ٥٥٤.

بينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج جاء رجل من قومى حتى وقف عندنا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إنى رأيت سواداً أو ظلا بالساحل، يخيل لى أنهما محمد وصاحبه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا هم، ولكن رأيت فلانًا وفلانًا مروا علينا وأمامنا، كى يصرف نظر صاحبه عن هذا الموضوع.

ثم قال سراقة: فجلست فى المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج فرسى، وهى من وراء منازلنا سرّا وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت متخفيًا حتى أتيت فرسى فركبتها وانطلقت خلفهم، وأنا أعرف الطريق، ولما اقتربت منهما (محمد وأبو بكر) فعثرت بى فرسى فسقطت من عليها، فقمت وسألت آلهتى أضرهما أم لا، فخرج فى نفسى ألا أضرهما، وسمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، فغرست قدما فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين، فنزلت عنها ثم ضربتها، فنهضت، فلم تكد تخرج رجليها الغارزتين فى الرمل حتى خرج أثر التراب من رجليها ساطعًا فى السماء مثل الدخان، فلما تكرر حتى جئتهم، ووقع فى نفسى مما رأيت من تعثر فرسى وغرز قدميها فى الرمل، وسقوطى عنها، عرفت أنه سيظهر دين رسول الله ﷺ وأمره.

فقلت للنبى ﷺ: إن قومك قد جعلوا فيك الدية (مائة ناقة) وأخبرتهما أخبار ما يريد الناس بهم - يقصد كفار قريش - وعرضت عليهم الطعام والماء والزاد والمتاع فلم يسألانى إلا أن قال ﷺ: «اخف عنا» فسألته أن يكتب لى كتاب أمن، فكتب لى، ثم مضى رسول الله ﷺ[1]، ورجع سراقة وكان أول النهار مطارداً لهما وآخر النهار حارسًا لهما[2] ولم يبلغ سراقة الكفار أنه لحق

(١) رواية البخارى ١/ ٥٥٤.
(٢) انظر زاد المعاد ٢/ ٥٣.

بالنبى ﷺ بل كان حريصًا على سلامته وصاحبه أبى بكر ﷺ ولم يطمع فى مائة ناقة بل حافظ على العهد.

أم معبد فى الطريق:

وفى الطريق مر رسول الله ﷺ بخيمة امرأة، هى أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة قوية تختبئ بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقى من يمر بها، فسألها الرسول ﷺ وأبو بكر هل عندها شىء؟ فقالت: والله لو كان عندنا شىء ما أعوزكم، والشاة لا تحلب، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة بجوار الخيمة فقال: « ما هذه الشاة يأم معبد »؟.

قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم - أى أنها ضعيفة لم تستطع الخروج مع الغنم.

فقال ﷺ: هل بها من لبن؟

قالت: هى أضعف من أن يكون بها لبن.

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها فدعا بإناء لها فحلب فيه حتى علته الرغوة - رغوة اللبن - فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانيًا حتى ملأ الإناء، ثم تركه لها مملوء وارتحل.

فلما جاء زوجها بعد قليل من رحيل النبى ﷺ وصاحبه أبى بكر جاء يسوق أعنزًا ضعافًا يتمايلن من الهزال والضعف، فلما رأى اللبن عجب فقال: من أين لك هذا؟ والشاء عازب لا تحلب، ولا حلوبة فى البيت؟ فقالت: لا والله، لقد مر بنا رجل مبارك، كان من حديثه كذا وكذا...

وصفته بصفاته الرائعة، ومن روعة وصفها كأن من يسمع ينظر إلى الرسول ﷺ وهو أمامه، فقالت لزوجها حينما طلب منها أن تصفه له:

ظاهر الوضاءة أبلج الوجه حسن الخلق لم تعبه ثجلة (أى أنه لم يكن ضخمًا) ولم تذر به صعلة، أى: أنه لم يكن صغير الرأس.

وسيم، قسيم، فى عينه دعج - أى: فى عينه سواد، وفى شعر أجفانه طول

- أحور - أكحل، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإذا تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نذر ولا هذر، غصن بين غصنين - تقصد أبا بكر وعامر بن فهيرة - فهو أنضر (أجمل) الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا له، وإذا أمر تبادروا إلى أمره[١].

فقال أبو معبد لزوجته أم معبد: والله هذا صاحب قريش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً[٢].

أبو بريدة مع النبى ﷺ:

وفى الطريق لقى النبى ﷺ أبا بريدة، وكان رئيس قومه، وقد خرج يبحث عن النبى ﷺ وصاحبه أبى بكر رضي الله عنه، وكان يرجو أن يفوز بالمكافأة الكبيرة التى أعلنت عنها قريش وهى مائة ناقة.

ولما لقى الرسول ﷺ وصاحبه وواجهه وكلمه أسلم مكانه مع سبعين رجلاً من قومه، ثم نزع عمامته وعقدها برمحه فاتخذها راية تعلن بأن ملك السلام والأمن قد جاء ليملأ الدنيا عدلاً وقسطًا، وفى طريقه ﷺ لقى الزبير ابن العوام وهو فى ركب قادم من تجارة الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بيضاء[٣].

وانطلق النبى وصاحبه يقطعان الطريق فى حر شديد محرق ويجتازان الجبال والأودية، ولا يجدان فى الغالب ما يقيهما الحر، فتسلحا بالصبر وحسن الثقة بالله وإيمانهما الشديد بالحق الذى أنزل على رسول الله ﷺ، وظل كذلك سبعة أيام متتالية يستريحان فى وضح النهار وحره، ويجدان فى السير ليلا كى يطمئن قلباهما ويحذرا مخاطر المطاردة والطريق.

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٥ بتصرف واختصار لصعوبة اللفظ. (٢) المصدر السابق ٥٣ / ٥٤.
(٣) روى ذلك البخارى عن عروة بن الزبير ١ / ٥٥٤.

الرسـول ﷺ فى قبـاء

بلغ الإسلام شأناً عظيماً بالمدينة، واشتقاق أهلها شوقًا عظيمًا للقاء محمد ﷺ، وقد سمع المسلمون بالمدينة بمخوج الرسول ﷺ من مكة، فكانوا يخرجون كل يوم بعد صلاتهم الصبح إلى خارج المدينة فينتظرونه حتى تغلبهم الشمس ويردهم حر الظهيرة، وظلوا على ذلك أيامًا دون جدوى فمكثوا في بيوتهم، وبينما هم فى بيوتهم سمعوا رجلاً يهوديًا شاهد رسول الله وأصحابه وقد دنوا من المدينة، فلم يملك اليهودى نفسه حتى صرخ بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا خبركم الذى تنتظرون، فخرج المسلمون جميعًا.

وسمعت الرجة فى المدينة وكبر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، وكانوا حوله ينظرون وجهه ويتأملون سكينته ورحمته وسماحته، فتلقوا رسول الله ﷺ فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بنى عمرو بن عوف فنزل رسول الله ﷺ بقباء ومكث على بن أبى طالب بمكة ثلاثًا حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ثم هاجر ماشيًا على قدميه حتى لحقهما بقباء[١].

وقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، وبدأ الأنصار فى القدوم من المدينة، وكانت المدينة كلها قد خرجت لاستقبال رسول الله ﷺ، وكان يوما مشهوداً لم تشهد المدينة مثله فى تاريخها.

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام، وأسس مسجد قباء وصلى فيه وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة وركب رسول الله ﷺ فى يوم الجمعة وأبو بكر خلفه وأرسل إلى بنى النجار - أخواله - فجاءوا متقلدين

(١) زاد المعاد ٢/ ٥٤ وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٤٩٣.

سيوفهم فسار نحو المدينة، فأدركته صلاة الجمعة فى ديار بنى سالم بن عوف، فجمَّع بهم فى بطن الوادى هناك، وكانوا مائة رجل.

وبعد صلاة الجمعة دخل رسول الله ﷺ يثرب، ومن ذلك اليوم أصبح اسمها المدينة المنورة، بدلاً من يثرب، وكان يومًا عظيمًا تاريخيا أغر، فقد كانت طرقات المدينة وسككها ترتج بأصوات التحميد والتسبيح، وكانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الأبيات فرحًا وسرورًا:

طلع البـــدر علينا
من ثنيـــات الوداع
وجب الشكر علينا
مـــا دعـــا لله داع
أيها المبعوث فينا
جـئت بالأمـر المطاع

ورغم أن الأنصار لم يكونوا أغنياء أو أصحاب ثروة كبيرة، إلا أن كل واحد منهم كان يود، بل يتمنى، أن ينزل الرسول ﷺ فى بيته ضيفًا وصاحب دار، فكان ﷺ لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام ناقته يريدون أن ينيخوها وهم يقولون:

هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة يا رسول الله، فكان ﷺ يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

فلم تزل الناقة تسير حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى - الذى نعرفه جميعًا فى المدينة - فبركت ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك فى أرض بنى النجار - أخواله ﷺ - وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله تكريمًا لهم، فجعل الناس يطلبون من رسول الله ﷺ ويكلمونه فى النزول

عليهم، وفى ديارهم، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى ناقة رسول الله ﷺ وحمل رحله فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله» وقيل: إن رسول الله ﷺ قال: «أى بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه دارى، وهذا بابى، فقال رسول الله ﷺ: «فانطلق فهيئ لنا مقيلاً» أى مكانًا نستريح فيه.

فقال أبو أيوب: قوما على بركة الله[١].

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة بنت أبى زمعة وبنتاه فاطمة وأم كلثوم وأسامة بن زيد وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر منهم عائشة، وبقيت زينب الابنة الكبرى للنبى ﷺ عند زوجها أبى العاص ابن الربيع، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد غزوة بدر[٢].

وقد دعا رسول الله ﷺ دعاء للمدينة بعد أن استقر به المقام قال فيه: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حبًا وصححها وبارك فى صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة[٣].

وبذلك تكون قد انتهت المرحلة المكية، أو سنوات الرسول ﷺ التى قضاها فى مكة استطاع خلالها أن يصمد ويصبر على الأذى والاضطهاد مع أصحابه، وها هو يبدأ عهده بالمدينة، والذى سيكون عهد انتصارات عظيمة، فينتصر الإسلام ويملأ جزيرة العرب وسيعود ﷺ فيدخل مكة منتصراً.

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٥٦.

(٢) زاد المعاد ٢ / ٥٥.

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٨٨ ص٥٨٩.

الإسلام فى المدينة

كان استقبال أهل يثرب للرسول ﷺ عظيمًا فقد استقبلوه رجالا ونساء بعد الذى ترامى إليه من أخبار هجرته ومن ائتمار قريش به ومن احتماله أشد التعب فى هذه الرحلة المضنية.

وكانت الهجرة إليهم خيرًا للمسلمين جميعًا مهاجرين وأنصار فبالرغم من أن الهجرة خلصت الرسول ﷺ والمهاجرين معه من مكة من الأذى والاضطهاد إلا أنها كانت بداية لإقامة مجتمع الإسلام والمسلمين فى المدينة، ولذا فقد كان لزامًا على كل مسلم أن يساهم فى بناء مجتمع الإسلام العظيم وذلك ببذل الجهد والمال.

فوجد الرسول ﷺ فى المدينة ثلاث مجموعات، هى:

١- أصحابه من المهاجرين والأنصار ﷺ جميعًا.

٢- رجال لم يؤمنوا بعد من قبائل المدينة.

٣- اليهود.

* * *

١- مع أصحابه من المهاجرين والأنصار:

بدأ الرسول ﷺ فى أول خطوة يخطوها فى المدينة، بدأ فى بناء المسجد مع أصحابه فى المكان الذى بركت فيه ناقته واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وشارك فى بنائه بنفسه، فكان ينقل الحجارة وينشد مع أصحابه:

* اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة *

* فاغفر للأنصار والمهاجرة *

ويقول :

* هذا الحمال لا حمال خيبر *

* هذا أبر لربنا وأطهر *

فيرد أصحابه عليه في نشاط وهم يعملون فيقولون :

* لئن قعدنا والنبي يعمل *

* لذاك منا العمل المضلل *

كانت القبلة إلى بيت المقدس وجعلت أركان المسجد من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن - الطين - وجعل سقفه من جريد النخل، وأعمدته من جذوع النخل، وفرشت أرضه بالرمال، وجعلت له ثلاثة أبواب، وقد بلغ طوله من جهة القبلة إلى آخره مائة ذراع، وكذلك جوانبه وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع، وبنى ﷺ بيوتاً إلى جانبه بيوتاً من الحجر واللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، وهى حجرات أزواجه، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبى أيوب[١] .

وكان مسجده الذى بناه لا يقتصر على الصلاة فقط، بل كان مركزاً للعلم وجامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وعلومه.

وأول شيء فعله الرسول لله بعد ذلك هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فقال ﷺ : « تآخوا فى الله أخوين أخوين » ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : « هذا أخى » فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين، الذى ليس له نظير من العباد، وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ أخوين، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل

(١) صحيح البخارى ١ / ٧١، ٥٥٥، ٥٦ زاد المعاد ٢ / ٥٦ .

أخوين، وأبو بكر الصديق وخارجة بن زهير الأنصارى أخوين، وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع أخوين(١)، وآخى ﷺ بين الجميع.

الأذان:

فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه المهاجرين واجتمع أمر الأنصار، وقوى الإسلام، فأُقيمت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، وأُقيمت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وأصبح الإيمان هو شعار المسلمين جميعاً، وكان رسول الله ﷺ يجتمع الناس إليه للصلاة فى أوقاتها من غير أن يدعوهم، ولماذا كان للصلاة مواقيت ويجب الإبلاغ عنها، فقد فكر رسول الله ﷺ فى بوق كبوق اليهود الذى يهرعون به لصلاتهم ثم كرهه وفكر فى الناقوس ليضرب.

فبينما هم فى هذا التفكير رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة الأذان، فأتى إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله إنه طاف بى هذه الليلة طائف، مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده، فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟

قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك» أى: أعلى صوتاً، فلما

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.

أذن بها سمعها عمر بن الخطاب، وهو فى بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ يجر رداءه وهو يقول: يا نبى الله، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى، فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد على ذلك»(١).

وكان للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وقع عظيم، فمثلاً لما آخى الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أحبهما إليك فسمها لى أطلقها لتتزوجها.

قال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه طعام، ثم تابع فى الغدو والأيام التالية.

ثم جاء يومًا إلى النبى ﷺ وبه أثر صفر، فسأله النبى ﷺ فأجاب عبد الرحمن: تزوجت، قال: «كم سقت إليها؟» قال: نواة من ذهب(٢).

وقال بعض الأنصار للنبى ﷺ بعد المؤاخاة بينهم وبين المهاجرين: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل.

فقال ﷺ: «لا».

قالوا: فتكفونا المؤنة ونشرككم فى الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا.

هذا كله يدل على مدى إيمان الأنصار وحفاوتهم وكرمهم مع إخوانهم المهاجرين، فضربوا مثلاً فى التضحية والإيثار، مما يدل على صفاء نفوسهم، ولكن المهاجرين لم يأخذوا من كل هذا إلا ما يحتاجون، وكتب الرسول ﷺ عهداً وميثاقًا بين المسلمين جميعًا، من المهاجرين والأنصار، يدعوهم إلى أنهم: أمة واحدة من دون الناس، وأنهم جميعًا - مهاجرين وأنصاراً - على من

---

(١) السيرة لابن هشام.

(٢) صحيح البخارى - باب إخاء النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ١ / ٥٥٣.

بغى عليهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنًا فى كافر، والمهاجرون وكل قبيلة من الأنصار لها ما لها ورجالها، لا يؤخذ منه شيء وكل جماعة منهم تفدى عانيها ومحتاجها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وأنهم مهما اختلفوا فى شيء فإنهم يرجعون فيه ألى الله عز وجل، إلى محمد ﷺ(١).

٢- أما الرجال الذين لم يؤمنوا فهم المشركون:

الذين لم يؤمنوا، وهم قبائل المدينة، ووجدهم الرسول ﷺ عندما جاء ولم يستطيعوا السيرة على المسلمين، فكان منهم المشرك والعدو الذى يبطن الحقد والعداوة للرسول ﷺ والمسلمين، ولم يستطع أن يقف فى وجوههم، ولو استطاع لفعل، من هؤلاء عبد الله بن أبى، فقد اجتمع الأوس والخزرج بعد الحرب التى دارت بينهم، وأوشكوا أن يجعلوه ملكًا عليهم، حين جاء رسول الله ﷺ، فانصرفوا من حوله ودخلوا الإسلام، فكان يرى أن الرسول ﷺ أخذ منه الملك، فلن يصبح ملكًا بعد الآن.

٣- اليهود:

والفئة الثالثة هم اليهود، وكان منهم فى المدينة ثلاث قبائل مشهورة هى:

١- بنو قينقاع: وقد تحالفوا مع الخزرج ضد الأوس، وكانوا يسكنون داخل المدينة.

٢- بنو النضير: كانوا من حلفاء الأوس، وديارهم بضواحى المدينة.

٣- بنو قريظة: كانوا من حلفاء الأوس أيضًا وديارهم بضواحى المدينة.

وكان اليهود تجاراً مهرة يتاجرون فى كل شيء، وكانوا أصحاب مؤامرات وفساد، فهم الذين يوقعون بين قبائل العرب وبعضها.

---

(١) انظر هذه الوثيقة فى سيرة ابن هشام ١/ ٥٠٢، ٥٠٣.

وكانت القبائل الثلاثة تثير الفتن والحروب بين الأوس والخزرج، مما جعل حرب بعاث تستمر طويلاً.

كانوا يظهرون الود للمسلمين ولكنهم يبطنون العداوة والحقد وقد عقد الرسول ﷺ معهم معاهدة تبين لهم حقوقهم وواجباتهم وجاء في المعاهدة: أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ولكل منهم أموالهم، ينفقون على أنفسهم منها، وأنهم لا يساندون قريشًا، أو ينصرونها على المسلمين، ويجب عليهم أن يدافعوا عن المدينة، شأنهم شأن المسلمين، وأن ينصروا المظلوم.

وبهذا استطاع الرسول ﷺ أن يؤمن المدينة ليتفرغ لدعوته.

قريش تلاحق المسلمين

اشتد غيظ قريش وكيدهم حينما علموا أن المسلمين وجدوا فى المدينة مأمنًا واستقرارًا وطمأنينة فكتبوا إلى عبد الله بن أبى ابن سلول، وكان مشركًا، وأرسلت له قريش بصفته ملك الأنصار ورئيسهم قبل الهجرة - كتبوا إليه يقولون: إنكم آويتم أصحابنا، وإنا نقسم بالله إما أن تقاتلوه وتخرجوه، أو لنسير إليكم بأجمعنا نحاربكم، ولما وصل هذا الكتاب إلى عبد الله بن أبى - وقد كان يحقد على النبى ﷺ - حاول أن يجمع من كان معه من الكفار والمشركين، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ...» إلى أن قال لهم: «تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟» فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا[١].

فلما رأى عبد الله بن أبى تفرق جماعته امتنع عن التفكير فى القتال، ولكنه كان يميل إلى قريش متواطئًا معها، فكان كلما وجد فرصة لإيقاع الشر والفتنة بين المسلمين والمشركين فعلها، وكان يضم إليه اليهود ليساعدوه على ذلك، وكان سعد بن معاذ قد انطلق إلى مكة معتمرًا فنزل ضيفًا على صديقه أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر إذا كان البيت خاليًا لأطوفه، فخرج به نهارًا، ولقيهما أبو جهل، فقال أبو جهل لأمية: يا أمية، من هذا الذى معك؟ فقال: هذا سعد بن معاذ، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا، وقد آويتم أصحاب محمد وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أمية بن خلف ما رجعت إلى أهلك سالمًا.

فقال له سعد بن معاذ - وقد رفع صوته: أما والله لو منعتنى هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على أهل المدينة[٢].

(١) انظر: أبو داود خبر بنى النضير.

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى ٢ / ٦٥٥، ٦٥٦، ٩١٦، ٩٢٤.

وقد أرسلت قريش للمسلمين تهدد وتوعد وتقول لهم :

« لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيدكم في عقر داركم » .

وظلت قريش على كيدها للمسلمين تتحين الفرص لتقضي عليهم وعلى دعوة رسولهم ﷺ(١) .

(١) سأفرد كتابًا مستقلاً بعنوان « غزوات الرسول ﷺ .

وفاة الرسول ﷺ

انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى

اعتكف رسول الله ﷺ فى رمضان من السنة العاشرة عشرين يومًا بينما كان ﷺ لا يعتكف إلا عشرة أيام وقد تدارسه جبريل القرآن مرتين.

وقد ألمح رسول الله ﷺ فى حجة الوداع إلى أن أيامه فى الدنيا باتت قليلة، فقال فى حجة الوداع: «إنى لا أدرى، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً.

وقال عند جمرة العقبة: «خذوا عنى مناسككم، فلعلى لا أحج بعد عامى هذا» فنزلت عليه سورة النصر فى أوسط أيام التشريق: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر) فعرف أنه الوداع، وأنه بنزول هذه السورة نعيت إليه نفسه.

وبدأ مرض رسول الله ﷺ فى اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هجرية، وكان يوم الاثنين بعد أن شهد رسول الله ﷺ جنازة فى البقيع، شعر بصداع فى رأسه وارتفعت حرارته، وقد صلى النبى ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يومًا، وظل مريضًا من ١٣ : ١٤ يومًا.

وفى اليوم الأخير فى حياة النبى ﷺ تحدث أنس بن مالك فقال: إن المسلمين بينما هم فى صلاة الفجر يوم الاثنين وأبو بكر يصلى بهم لم يفاجئهم إلا رسول الله ﷺ، كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص (رجع) أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس:

وهم المسلمون أن يفتنوا فى صلاتهم، فرحًا برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى السترة.

(صحيح البخارى باب مرض النبى ﷺ ص٢ / ٦٤٠)

ولما ارتفع الضحى دعا النبى ﷺ فاطمة فأسرَّ إليها بشىء، فبكت، ثم دعاها فأسرَّ إليها بسرٍّ فضحكت، فسئلت فاطمة عن ذلك فيما بعد، فقالت: سارنى النبى ﷺ أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه، فبكيت، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول أهله يتبعه فضحكت.

قالت فاطمة: إن النبى ﷺ أسرَّ لها أنه سيموت فى مرضه هذا، فبكت، ثم أسر لها أنها أول أهل بيته سيلحق به فضحكت.

ولما رأت فاطمة ﵂ شدة المرض على وجه أبيها ﷺ قالت: واكرب أباه، فقال لها ﷺ: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم».

ودعا ﷺ الحسن والحسين أبناء على وفاطمة ﵃ فقبلهما وأوصى بهما خيراً، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن، وأوصى ﷺ الناس قائلاً: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» وكرر ذلك مراراً.

بدأ رسول الله ﷺ يحتضر فأسندته السيدة عائشة إليها وكانت تقول: إن من نعم الله علىّ أنَّ رسول الله ﷺ توفى فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى، وأن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته.

ودخل عبد الرحمن بن أبى بكر، وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، قلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فكان شديداً عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته، وما إن فرغ من السواك حتى رفع يده واصبعه وشخص بصره نحو السقف وتحركت شفتاه، فَأَصْغَت إليه عائشة وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى»

كـرر ذلك ثلاث مـرات، ومـالـت يده، ولحق بالرفـيق الأعلى، إنا لله وإنا إليـه راجعون.

كان ذلك في وقت الضحى يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هجرية، وقد تم لرسول الله ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

اللهم ألحقنا برسول الله ﷺ في جنة الخلد ... آمين.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة



